من البلاغة النبوية فى أدعية الصلاة

دكتور

على محمد عبد الرحيم محمد على

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الذى جعل الصلاة عماد الدين وجعلها صلة قوية بينه وبين عباده المؤمنين ، هى معراج الأرواح وروح الأشباح وقرة عيون المحبين ولذة أرواح الموحدين وبستان العابدين ولذة نفوس الخاشعين ومحك أحوال الصادقين وميزان أحوال السالكين ، والصلاة والسلام على النبى الأمين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله وصحابته الغر الميامين وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين ، وبعد يوم الدين ... أما بعد :

فمما لاشك فيه أن الصلاة من أعظم أركان الدين بعد الشهادتين ، وهى أمر رب العالمين حيث قال فى كتابه الكريم فى أكثر من موضع : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ ، وأثنى على المتقين ووصفهم بأنهم هم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ، وهى الوصية الأخيرة للرسول الأمين ﷺ ، فقد وصَّى بها وهو فى آخر رمق له ، روى أنس ابن مالك – رضى الله عنه – قال : " كان آخر وصية رسول الله ﷺ وهو يغرغر بها فى صدره وما كان يفيض بها لسانه : الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم " [١] ، والصلاة من أعظم مكفرات الذنوب ، وهى أحب الأعمال إلى الله تعالى ، فقد خرَّج البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال : " سألت النبى ﷺ أى العمل أحب إلى الله قال الصلاة على وقتها ... الحديث " [٢] .

والصلاة هى أفضل عبادات البدن ، وهى خير ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى فقد صحَّ عن النبى ﷺ أنه قال : " استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير

---

(١) صحيح ابن حبان ، تحقيق / شعيب الأرناؤوط ١٤ / ٥٧٠ ، حديث رقم ٦٦٠٥ ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، طبعة ثانية ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، والمستدرك للحاكم ، تحقيق / مصطفى عبد القادر عطا ٣ / ٥٩ ، حديث رقم ٤٣٨٨ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .

(٢) صحيح البخارى ، تحقيق / محمد بن زهير بن ناصر الناصر ، باب فضل الصلاة لوقتها ١ / ٥٣٨ ، حديث رقم ٥٢٧ ، طبعة دار طوق النجاة ، طبعة أولى ١٤٢٢ هـ ، وصحيح مسلم ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقى ، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ١ / ٨٩ ، حديث رقم ٨٥ ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن " [١] ، والصلاة هى آخر ما يذهب من الإسلام ، وهى أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة ، وهى صلة بين العبد وربه ، وغير ذلك من الخصائص والفضائل التى تميزت بها الصلاة دون غيرها من العبادات ، والصلاة - كما هو معلوم - إنما هى أقوال وأفعال ، والأفعال فيها إنما هى القيام والركوع والرفع منه والسجود والرفع منه ثم الجلوس ، ولكل فعل من هذه الأفعال أقواله الخاصة به والتى تقال فيه والتى تُسمَّى أدعية الصلاة وأذكارها .

وغير خافٍ على كل مسلم أهمية الذكر وعظيم فائدته ، إذ هو من أجلَّ المقاصد وأنفع الأعمال المقربة إلى الله تعالى ، ولا ريب أن ذكر الله ودعاءه هو خير ما أُمضيت فيه الأوقات ، وصرفت فيه الأنفاس ، وأفضل ما تقرب به العبد إلى ربه - سبحانه وتعالى - والدعاء هو مفتاح كل خير يناله العبد فى الدنيا والآخرة ، يقول ابن القيم : " فمتى أَعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يَفتح له ، ومتى أضله عن المفتاح بقى باب الخير مرتجًا دونه " [٢] ، وأفضل من ذلك ما ذكره النبى ﷺ فى شأن الدعاء ، حيث اختصر العبادة كلها بجميع صورها فى صورة واحدة ألا وهى الدعاء حيث قال : " إن الدعاء هو العبادة " [٣] ، ويفهم منه أن الإنسان متى واظب على هذه الشعيرة وأداها لله على أكمل وجوهها فقد

---

(١) السنن الكبرى للبيهقى ، تحقيق / محمد عبد القادر عطا ١ / ٤٥٧ ، حديث رقم ١٩٨٨ ، طبعة مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، وسنن ابن ماجة ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقى ١ / ١٠٢ ، حديث رقم ٢٧٨ ، طبعة دار الفكر ، بيروت .

(٢) الفوائد لابن القيم ١ / ٩٧ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة ثانية ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ .

(٣) الأدب المفرد للبخارى ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقى ، وصححه الألبانى ١ / ٢٤٩ ، حديث رقم ٧١٤ ، طبعة دار البشائر الإسلامية ، بيروت طبعة ثالثة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ، وينظر : سنن أبى داود ، تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد ١ / ٤٦٦ ، حديث رقم ١٤٧٩ ، طبعة دار الفكر .

ترقى فى مدارج الكمال واقترب من رحمة الكبير المتعال .

وأقول : إذا كانت الصلاة بهذه الأهمية التى أوصى القرآن الكريم بها ، وكذلك السنة المطهرة وكان للدعاء بصفة عامة مكانته وأهميته فى الدين كان أفضل دعاء وأرجاه قبولاً عند الله هو ما كان فى أفضل ركن من أركان الدين بعد الشهادتين ألا وهو الصلاة ، ففى أفضل ركن يأتى العبد بأفضل أقوال ألا وهى الدعاء ، ولما كان الخير كل الخير فى الطاعة ، وكانت الطاعة لا تحصل إلا بالامتثال ، كان التحرى والوقوف على ما ورد عن النبى ﷺ من أدعية فى الصلاة هو أفضل ما يأتى به العبد ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " والعبادات مبناها على التوقيف والاتباع لا على الهوى والابتداع ، فالأدعية والأذكار النبوية هى أفضل ما يتحراه المتحرى من الذكر والدعاء وسالكها على سبيل أمان وسلامة والفوائد والنتائج التى تحصل لا يعبر عنه لسان ولا يحيط به إنسان " [١] ، وقال تلميذه ابن القيم فى هذا المعنى : " وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان وكان من الأذكار النبوية وشهد الذاكر معانيه ومقاصده " [٢] .

وإذا ما نظرنا إلى أدعية النبى ﷺ عامة وجدناها على أحسن ما يكون الدعاء وعلى أفضل ما يكون الذكر ، كيف لا ؟ والذى علمه ذلك هو الله تبارك وتعالى ، وإذا نظرنا إلى أدعية الصلاة على وجه الخصوص وجدنا الضراعة فى أكمل صورها والدعاء فى أعلى مراتبه ، ووجدنا الخشوع والخضوع والتبتل والاعتراف بالتقصير والإخبات إلى الله تعالى ، ورأينا المواظبة التامة والدعاء الدائب المستمر بكل خير فى كل حركة من حركات صلاته وسكناتها ﷺ ، فدعاؤه أفضل دعاء فى أفضل ركن من أفضل داعٍ إلى الله .

لهذا وجدت نفسى مبهورًا بهذا العمل ومشدودًا إلى هذا اللون من الدعاء ، وتاقت نفسى للكتابة فيه عسانى أن أتمثل موقفه ﷺ فى صلاته ، وأناجى على هدى

---

(١) ينظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ، الإصدار الثانى ، دراسة وتحقيق / عبد الرحمن بن محمد قاسم ص ٢١ ، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .

(٢) الفوائد لابن القيم ١ / ١٩٢ .

مناجاته ، وأضرع على نحو ضراعاته ، فاستخرت الله العظيم ودعوته أن يوفقنى فى هذا العمل وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم ، ولكن لما كان التخصص يحتم على الباحث أن ينظر إلى الموضوع الذى يود الكتابة فيه من زاوية تخصصه كان لزامًا علىَّ أن أتخذ فى بحثى هذا طريق التحليل البلاغى لأقف على البلاغة العالية فى أبهى مواقفها وفى أسمى منازلها وفى أصدق تعبيراتها ، فكان هذا الموضوع :

" من البلاغة النبوية فى أدعية الصلاة "

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتى فى ستة مباحث يسبقها مقدمة وتمهيد وتعقبها خاتمة ، وقد جعلتها ستة بناء على المواطن التى كان النبى ﷺ يدعو فيها فى صلاته ، فقد ذكر صاحب الفتح " أن محصل ما ثبت عنه ﷺ من المواضع التى كان يدعو فيها داخل الصلاة ستة مواطن " (١) ، وذكرها على نحو ما سيأتى :

المبحث الأول : تعرضت فيه لما يقال من الدعاء عقب تكبيرة الإحرام.

والمبحث الثانى : ما يقال من الدعاء فى الركوع .

والمبحث الثالث : ما يقال من الدعاء بعد الرفع من الركوع .

والمبحث الرابع : ما يقال من الدعاء فى السجود .

والمبحث الخامس : ما يقال من الدعاء بين السجدتين .

والمبحث السادس : ما يقال من الدعاء فى التشهد .

ثم كانت خاتمة البحث وذكرت فيها ما توصلت إليه من نتائج وفوائد .

ولا أملك إلا أن أقول:﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾[إبراهيم : ٤٠ ، ٤١] .

ولقد بذلت فى هذا البحث جهدى وطاقتى – والله يعلم – ولم أدخر فيه وسعًا ولم آل جهدًا ، وهو مع ذلك جهد المقل وإشراقة المهل ، والله أسأل أن يغفر به زلات وأن يرفع به درجات ، وأن ينزل به رحمات ، وأن يسكن به جنات ، إنه بكل جميل كفيل ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الدكتور

على محمد عبد الرحيم محمد على

---

(١) ينظر : فتح البارى لابن حجر ١١ / ١٣٢ ، طبعة دار المعرفة ، بيروت ١٣٧٩ هـ .

تمهيد

معلوم أن الصلاة هى الركن الثانى يأتى بعد الشهادتين ، روى البخارى فى صحيحه من حديث ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : " بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة .... الحديث " (١) .

وهى ركن الدين الأعظم وعموده ، وهى أول فروض الإسلام ، ولا حظ فى الإسلام لمن تركها ، وكل مستخف بها مستهين فهو مستخف بالإسلام مستهين به ، وإنما حظ الناس من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة ورغبتهم فى الإسلام على قدر رغبتهم فى الصلاة . هذا .. ولن يستطيع متكلم مهما تكلم أن يوفى بحق الصلاة، والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية فى هذا المجال أكثر من أن تحصى ، ولكن تمشيًا مع طبيعة البحث أود الوقوف على معنى الصلاة فى اللغة ومفهومها عند أهل الشرع ، فأقول وبالله التوفيق :

مفهوم الصلاة فى اللغة وفى الشرع :

جاء فى معاجم اللغة أن " الصلاة فى اللغة الدعاء " (٢) .

وفى الشرع : " هى عبارة عن هيئات وحركات وأقوال وأفعال تبدأ بالتكبير وتنتهى بالتسليم " (٣) .

---

(١) ينظر : صحيح البخارى ، تحقيق / محمد زهير بن ناصر الناصر ، كتاب الإيمان ، باب دعاؤكم إيمانكم ١ / ١١ ، حديث رقم ٨ .

(٢) ينظر فى ذلك : كتاب العين للخليل ، تحقيق د / مهدى المخزومى ، د / إبراهيم السامرائى ٧ / ١٥٣ ، طبعة دار ومكتبة الهلال ، ولسان العرب لابن منظور ١٤ / ٤٦٤ ، طبعة دار صادر ، بيروت _ طبعة أولى ، والصحاح للجوهرى ٧ / ٢٥٢ ، طبعة دار العلم للملايين ، طبعة رابعة ١٩٩٠ م ، وكتاب الكليات لأبى البقاء الكفومى ، تحقيق / عدنان درويش ، ومحمد المصرى ١ / ٨٥٤ ، طبعة مطبعة الرسالة ، بيروت ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م

(٣) ينظر : التعريفات لعلى بن محمد الجرجانى ، تحقيق / إبراهيم الإبيارى ١ / ١٧٥ ، طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت ، طبعة أولى ١٤٠٥ هـ ، والمغنى لابن قدامة ١ / ٤١٠

وهى تشتمل على عبادات قلبية وقولية وعملية ، فالصلاة تشتمل على أنواع العبادة فى القلب من الخشوع والخشية والإقبال على الله – سبحانه وتعالى – وباللسان من التكبير والتحميد والثناء على الله وتلاوة القرآن ومناجاة الرب سبحانه وبالجوارح من القيام والركوع والسجود والجلوس ، فالصلاة عبادة عظيمة يجتمع فيها ما لا يجتمع فى غيرها من أنواع العبادات ، وقد سُميت صلاة لاشتمالها على الدعاء فإنها كانت اسمًا لكل دعاء فصارت اسمًا لدعاء مخصوص، أو كانت اسمًا لدعاء فنقلت إلى الصلاة الشرعية لما بينها وبين الدعاء من المناسبة ، والأمر فى ذلك متقارب " فإذا أطلق اسم الصلاة فى الشرع لم يفهم منه إلا الصلاة المشروعة " (١) ، وقد اشتملت الصلاة على الدعاء بنوعيه : دعاء المسألة وهو طلب ما ينفع الداعى من جلب النفع أو دفع الضر أو كشفه ، وسؤال الحاجات من الله بلسان الحال ، ودعاء العبادة وهو طلب الثواب بالأعمال الصالحة من القيام والركوع والسجود ، فمن فعل هذه العبادات فقد دعا ربه وطلب بلسان الحال أن يغفر له ، وبذلك يتضح أن الصلاة كلها دعاء مسألة ودعاء عبادة لاشتمالها على ذلك كله .

الدعاء فى اللغة وفى الشرع :

أما الدعاء فقد ورد فى معاجم اللغة بمعنى الصياح وبمعنى النداء يقال " دعوت فلانًا بفلان : ناديته وصحت به ، والدعاء الرغبة إلى الله تعالى دعا دعاءً ودعوى ويقال دعوتُ زيدًا إذا ناديته " (٢) ، وجاء من معانى الدعاء فى لسان

، طبعة دار الفكر ، بيروت ، طبعة أولى ١٤٠٥ هـ ، والقاموس الفقهى لغة واصطلاحًا ، سعدى أبو حبيب ١ / ٢١٦ ، ٣١٠ ، طبعة دار الفكر ، دمشق ، طبعة ثانية ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

(١) ينظر : شرح العمدة فى الفقه لابن تيمية ، تحقيق د / سعود صالح العطيشان ٤ / ٣٠ ، طبعة مكتبة العبيكان ، الرياض ، طبعة أولى ١٤١٢ هـ .

(٢) ينظر : أساس البلاغة للزمخشرى ، تقديم د / محمود فهمى حجازى ١ / ٢٧٢ ، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣ م ، وكتاب العين ٢ / ٢٢٢ ، والصحاح للجوهرى ٧ / ١٨٦ ، والقاموس المحيط مادة الدعاء ١ / ١٦٥٥ ، والنهاية فى

العرب : الاستغاثة ، وقد يكون الدعاء عبادة ... قال أبو إسحاق فى قوله : ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ معنى الدعاء لله على ثلاثة أوجه : فضرب منها توحيده والثناء عليه كقولك : يا الله لا إله إلا أنت ، وكقولك ربنا لك الحمد إذا قلته فقد دعوته بقولك ربنا ثم أتيت بالثناء والتوحيد ، ومثله قوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ (غافر : ٦٠) فهذا ضرب من الدعاء ، والضرب الثانى : مسألة الله العفو والرحمة وما يقرب منه كقولك : اللهم اغفر لنا ، والضرب الثالث : مسألة الحظ من الدنيا كقولك : اللهم ارزقنى مالاً وولدًا ، وإنما سُمى هذا جميعه دعاء لأن الإنسان يصدر فى هذه الأشياء بقوله يا الله يا رب يا رحمن ، فلذلك سمى دعاء ... والدعوة المرة الواحدة من الدعاء ... والدعاء واحد الأدعية " [١] .

وإذا كان الدعاء يأتى ومعناه النداء والصياح والاستغاثة والرغبة والعبادة، فقد فرق أبو هلال العسكرى بين الدعاء وبين أشهر معانيه وهو النداء حيث ذكر " أن النداء هو رفع الصوت بما له معنى ، والعربى يقول لصاحبه ناد معى ليكون ذلك أندى لصوتنا أى أبعد له ، والدعاء يكون برفع الصوت وخفضه ، يقال : دعوته من بعيد ودعوت الله فى نفسى ، ولا يقال ناديته فى نفسى " [٢] .

أما الدعاء من جهة الشرع فقد عرفه الإمام الخطابى بقوله : " معنى الدعاء استدعاء العبد ربه عز وجل العناية واستمداده منه المعونة وحقيقته إظهار الافتقار إلى الله تعالى والتبرؤ من الحول والقوة وهو سمة العبودية واستشعار الذلة البشرية ، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل وإضافة الجود والكرم إليه"[٣].

غريب الحديث والأثر لأبى السعادات ابن الجزرى ، تحقيق / طاهر أحمد الزاوى ، ومحمود محمد الطناحى ٢ / ٢٨٠ ، طبعة المكتبة العلمية ، بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، والقاموس الفقهى ١ / ١٣٠ .

(١) لسان العرب ١٤ / ٢٥٧ .

(٢) معجم الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ١ / ٣٦٥ .

(٣) شأن الدعاء للخطابى ص ٤ ، تحقيق / أحمد يوسف الدقاق ، طبعة دار المأمون للتراث ، دمشق ، طبعة أولى ١٤٠٤ هـ ، وينظر : تفسير الرازى ٥ / ٨٣ ، طبعة دار الكتب

وقال ابن القيم : " هو طلب ما ينفع الداعى وطلب كشف مـــا يضـــره أو دفعه " [١] .

بعد هذا يطيب لى أن أشير فى وجازة إلى فضل الدعاء .

فضل الدعاء :

الدعاء شأنه فى الإسلام عظيم ومكانته فيه سامية ومنزلته منه عالية ؛ إذ هو أجلّ العبادات وأعظم الطاعات وأنفع القربات ، ولهذا جاءت النصوص الكثيرة فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ المبينة لفضله والمنوهة بمكانته وعظم شأنه والحاثّة عليه وقد تنوعت دلالة هذه النصوص المبينة لفضل الدعاء فجـــاء فـــى بعضها الأمر به والحثّ عليه ، وفى بعضها التحذير من تركه والاستكبار عنـــه ، وفى بعضها ذكر عظيم ثوابه وكِبر أجره عند الله ، وفى بعضها مـــدح المـــؤمنين لقيامهم به والثناء عليه بتكميله ، وغير ذلك من أنواع الدلالات فى القرآن الكريم على عظم فضل الدعاء بل إن الله سبحانه قد افتتح كتابه الكريم بالدعاء واختتمه به ، فسورة الحمد التى هى فاتحة القرآن الكريم مشتملة على دعـــاء الله بأجـــل المطالب وأكمل المقاصد ألا وهو سؤال الله عز وجل الهداية إلى الصراط المستقيم والإعانة على عبادته والقيام بطاعته سبحانه ، وسورة الناس التى هـــى خاتمـــة القرآن الكريم مشتملة على دعاء الله سبحانه وذلك بالاستعاذة به سبحانه من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ، وما مـــن ريب فى أن افتتاح القرآن بالدعاء واختتامه به دليل على عظم شأن الدعاء ، وأنه روح العبادات ولبّها ، بل إن الله جل وعلا يسمى الدعاء فى القرآن الكريم عبادة فى أكثر من آية مما يدل على عظم مكانته ، والآيات فى فضل الدعاء أكثر من أن تحصى ، وقد هالنى ما اطلعت عليه – كذلك – من الأحاديث النبوية فـــى فضـــل

العلمية ، بيروت ، طبعة أولى ١٤٢١ هـــ / ٢٠٠٠ م ، وفيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرءوف المناوى ، تعليق / ماجد الحموى ١ / ٢٢٨ ، طبعة المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـــ .

(١) ينظر : بدائع الفوائد لابن القيم ٤ / ٢ ، طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان .

الدعاء وبيان منزلته من الدين .

هذا ... ونظرًا لمراعاة طبيعة البحث فإننى أكتفى بهذه الإشارة السريعة فى بيان فضل الدعاء ، وأترك سرد الآيات وعرض الأحاديث لمكان آخر محافظة على منهج البحث وطبيعته ، ولأن ذلك مما يضفى على البحث تضخمًا وترهُّلاً .

لهذا وغيره آثرت أن أتلمس الطريقة النبوية فى طلب القرب والمناجاة من الذات العلية ، فعمدت إلى عمود الدين أتكئ عليه وأتفيأ ظلاله ، وأنا إذ أفعل فإنما أكون قد اخترت نوعًا واحدًا من أنواعٍ كثيرة للدعاء حتى يتسنى لى التعامل معه فى محاولة لاستخلاص البلاغة النبوية الشريفة – قدر المستطاع .

هذا .. ولما طالعت الأدعية الواردة فى الصلاة وأنا أعنى بها الصلاة المفروضة ، ووقفت عليها من أصح كتب متون الحديث وجدتها كثيرة ومتنوعة ، فدعاء الاستفتاح – مثلاً – ورد فيه أكثر من حديث وكلها صحيحة ، وكل ما ورد من أدعية فى الصلاة مما وقفت عليه أدعية صحيحة ولكنها متفاوتة فى درجة الصحة فاستخلصت منها ما اتفقت عليه كلمة العلماء بأنه أصح من غيره ومع هذا فكنت أشير إلى ما هو دونه فى الصحة إشارة خفية أوضح بها معنى مما أنا بصدده ، أو أستشهد به لرأى أراه من وجهة نظرى هو الأولى تمشيًا مع البلاغة النبوية ، هذا .. وسأعرض فى الصفحات التالية موطن الدعاء وما ورد فيه لأستجلى البلاغة العالية وأنهل منها ، وأنا إذ أقدم على هذا العمل أسأل الله العون والتوفيق والهداية والسداد إنه ربى وهو نعم المولى ونعم النصير .

المبحث الأول

ما يقال من الدعاء عقب تكبيرة الإحرام

عن أبى هريرة قال :كان رسول الله ﷺ إذا كبَّر فى الصلاة سكت هنيَّة فقلت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ما تقول فى سكوتك بين التكبير والقراءة قال: " أقول : اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد "[١] .

هذا الحديث الشريف هو فى جملته دعاء فى غاية المناسبة فى هذا المقام الشريف موقف المناجاة ؛ لأن المصلى يتوجه إلى الله تعالى فى أن يمحو ذنوبه وأن يبعد بينه وبينها إبعادًا لا يحصل معه لقاء وأن يزيل عنه الذنوب والخطايا وينقيه منها كما يزال الوسخ من الثوب الأبيض الذى يظهر فيه أثر الغسل ، وأن يغسله من خطاياه ويبرد لهيبها وحرها بهذه المنقيات الباردة ، ولعل مناسبة هذا الدعاء بعد الوقوف بين يدى الله وبعد التكبير للصلاة أن الإنسان لا يغيب عنه هذه المكانة ، وأنه كما يعرف قدره فهو كذلك يعرف قدر من يناجى ويسأل ، وحتى يكون لهذه الشعيرة قبول من الله يمحو عن العبد سيئة أو يرفع له درجة لابد أن يخلع العبد من نفسه كل ميل إلى الهوى ، ويتخلص من كل علوق بالدنيا وما فيها وهذا إنما يكون إذا اعترف العبد بخطاياه وألقى بها بين يدى مولاه معترفًا بها غير منكرٍ لها داعيًا أن تمحى وتنقى وتطهر حتى لا يبقى لها فى النفس أدنى أثر، ولا لها فى البال أى شغل ، والمتأمل لهذا البيان العالى الصادر من أفضل داعٍ إلى الله يجد تصدير هذا الدعاء بهذا النداء الخاص " اللهم " الذى يجمع كل أنواع الضراعات ذكر أهل العلم أن " هذه اللفظة بمعنى يا الله فحذفت أداة النداء (يا) وأبدلت بالميم فى آخر هذا الاسم العظيم فصارت اللهم لأنهما حرفان مكان حرفين"[٢] ، وبالنظر إلى أصل هذه الكلمة وما ألحق بها عوضًا عما حذف منها

---

(١) صحيح البخارى ، تحقيق / محمد زهير الناصر ٢ / ١٥٥ ، حديث رقم ٧٤٤ ، وصحيح مسلم ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقى ١ / ٤١٩ ، حديث رقم ٥٩٨ .

(٢) ينظر بتصرف : كتاب الجمل فى النحو للخليل بن أحمد ، تحقيق د / فخر الدين قباوة ١ / ١٣٦ ، طبعة خامسة ١٩٩٥ م ، والكتاب لسيبويه ، تحقيق / عبد السلام هارون ١ /

نجد أن هذه الحركة فى بنية الكلمة قد أضفت عليها معنى أعمق من معناها وخلعت عليها دلالة أليق بمقام التضرع والدعاء ، فقد زادت هذه الحركة من تفخيم النداء ومن توسيع الدلالة فيا الله نداء للاسم الأعظم فقط لكن بعد حركة الحذف والتعويض صارت دلالتها أوسع فشملت جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى التى أمر أعبد الخلق أن يدعو الله بها وأمرنا نحن كذلك ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [١] ، وفى هذا من الإيجاز والتركيز والاختصار ، يقول العلامة ابن حجر – رحمه الله –: " اللهم " هذه كلمة كثر استعمالها فى الدعاء وهى بمعنى يا الله ، والميم عوض عن حرف النداء ، فلا يقال : اللهم غفور رحيم ، وإنما يقال : اللهم اغفر لى وارحمنى ، ولا يدخلها حرف النداء إلا فى نادر ... واختص هذا الاسم بقطع الهمزة عند النداء ووجوب تفخيم لامه ، وبدخول حرف النداء عليه مع التعريف ... وزيدت هذه الميم فى الاسم العظيم تفخيمًا وقيل بل هى كالواو الدالة على الجمع كأن الداعى قال : يا من اجتمعت له الأسماء الحسنى ، ولذلك شددت الميم لتكون عوضًا عن علامة الجمع ، وقد جاء عن الحسن البصرى " اللهم " مجتمع النداء ، وعن النضر بن شميل : من قال اللهم فقد سأل الله بجميع أسمائه " [٢] .

لهذه المعانى الجليلة صدر النبى ﷺ الدعاء بهذه اللفظة الجامعة الشاملة ، وهذا من تمام المناسبة ، والمراد من المباعدة : محو ما حصل من الذنوب

---

٢٥ ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، وكتاب اللمع فى العربية لابن جنى ، تحقيق / فائز فارس ١ / ١١٣ ، ط دار الكتب الثقافية ، الكويت ١٩٧٢ م ، وكتاب الأصول فى النحو لابن السراج ، تحقيق / عبد المحسن الفتلى ١ / ٣٣٨ ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، طبعة ثالثة ١٩٨٨ م ، والإنصاف فى مسائل الخلاف لأبى البركات الأنبارى ١ / ٣٤٣ ، طبعة دار الفكر ، دمشق .

(١) سورة الأعراف : الآية ١٨٠ .

(٢) ينظر : فتح البارى لابن حجر ، تحقيق / عبد العزيز بن باز ، ومحب الدين الخطيب ١١ / ١٥ ، طبعة دار الفكر ، وينظر : جلاء الأفهام فى فضل الصلاة على محمد خير الأنام ، ابن القيم ، تحقيق / شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر الأرناؤوط ١/ ١٥٢ ، طبعة دار العروبة ، الكويت ، طبعة ثانية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م .

والخطايا والعصمة عما سيأتى منها ، يعنى إن كان المراد بالذنوب التى اقترفت فالمراد بها محوها ، وإن كانت التى ربما تأتى لأن بنى آدم خطَّاء فالمراد العصمة منها ، وإذا كانت حقيقة المباعدة إنما هى فى الزمان والمكان كان استعمالها هنا مجازًا ، قال الإمام الشوكانى : " وفى اللفظ مجازان : الأول استعمال المباعدة فى الإزالة بالكلية مع أن أصلها لا يقتضى الزوال " [١] قالوا: وأصل باعد : أبعد فأخرج إلى صيغة المفاعلة للمبالغة لأن المفاعلة إذا لم تكن للمبالغة فهى للمبالغة ، وإذا كانت للمبالغة أفادت التكثير ، وقيل : تفيد البعد من الجانبين فكأنه قيل : الهم باعد بينى وبين خطاياى وباعد بين خطاياى وبينى " [٢] ، والخطايا جمع خطيئة وهى الذنب والمعصية إما بترك ما يجب أو بفعل ما يحرم ، ومبالغة فى المباعدة يستخدم البيان النبوى التشبيه كوسيلة وأداة لتحديد المسافة التى يريد أن تكون بينه وبين الخطايا حتى يمنعه البعد من اقترافها – كما باعدت بين المشرق والمغرب – وهذا مبنى على أن التقاء المشرق والمغرب مستحيل ، فعبر فى التشبيه بما هو مستحيل ليستحيل اقتراب الذنوب منه ، قال أهل العلم : " وإنما شبه بعدها ببعد المشرق والمغرب مبالغة فى البعد لأنه ما فى المشاهدات أبعد مما بين المشرق والمغرب فيكون المراد من المباعدة محو الذنوب وترك المؤاخذة بها أو المنع من وقوعها والعصمة منها ، وقالوا أراد أنه لا يبقى لها منه اقتراب بالكلية " [٣] .

وفى تصدير هذه الجملة بالنداء العظيم وبفعل الأمر الذى أريد به الدعاء

---

(١) ينظر : نيل الأوطار للشوكانى ٢ / ٢٠٦ ، طبعة دار الطباعة المنيرية ، وفتح البارى لابن حجر ٢ / ٢٣٠ ، وعمدة القارى شرح صحيح البخارى لبدر الدين العينى ٩ / ٦١ ، وينظر : مشكاة المصابيح للخطيب التبريزى ٣ / ١٨١ .

(٢) ينظر : عون المعبود شرح سنن أبى داود لمحمد شمس الحق العظيم آبادى ٢ / ٣٤٤ ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت ، طبعة ثانية ١٤١٥ هـ ، وينظر : عمدة القارى للعينى ٩ / ٦١ .

(٣) ينظر : فتح البارى لابن جر ٢ / ٢٣٠ ، وعمدة القارى ٩ / ٦٢ ، وعون المعبود ٢ / ٣٤٤ ، وينظر : تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين للشوكانى ١ / ١٥٢ ، طبعة دار القلم ، بيروت ، لبنان ، طبعة أولى ١٩٨٤ م .

والتضرع " باعد " وفى إضافة الخطايا إلى ضمير المتكلم استعطاف واعتراف صريح يتطلب إزالتها وإزالة أثرها ، فإذا ما كان بينك وبينها بعد المشرقين دل على أنها لم تضرك أبدًا ، قال أهل العلم : البلاغة هى مراعاة المقام ، يعنى أن المتكلم ينبغى أن يأتى بكلامه وفق ما يناسب المقام أو حسب ما يتطلبه ، ولا بلاغة أعلى من هذه البلاغة حيث جاءت على وفق مقتضى الحال من الضراعة والإخبات ، دليل ذلك - وهو لا يحتاج إلى دليل - أن الصلاة لما كانت صلة بين العبد وربه وكان المُصلِّى يناجى ربه وربه يقربه منه لم يصلح للدخول فى الصلاة إلا من كان طاهرًا فى ظاهره وباطنه فإذا قام المصلى بين يدى ربه فى الصلاة وشرع فى مناجاته شُرع له أول ما يناجى ربه أن يسأل ربه أن يباعد بينه وبين ما يوجب له البعد من ربه وهو الذنوب ، وأن يطهره منها ليصلح حينئذ للتقريب والمناجاة فيستكمل فوائد الصلاة وثمراتها من المعرفة والأنس والمحبة والخشية ، فتصير صلاته ناهية له عن الفحشاء والمنكر وهى الصلاة النافعة ، ولا يفوتنى أن أشير إلى سر البدء بنفسه ﷺ فى طلب المباعدة حيث قال : باعد بينى ، وهذا يظهر مدى حرصه ﷺ على إبعاد نفسه عن الذنوب ، وفيها إشعار بأنه هو الحريص على الهروب من الذنوب ، وهذا فى مقام الاستفتاح مناسب جدًّا فإن العبد بين يدى ربه هاربًا بنفسه من الذنوب ومواقعها وهذا أنسب من لو أنه قال : باعد بين خطاياى وبينى ، وناهيك عن إيراد الخطايا بلفظ الجمع وهذا فيه إشارة إلى أن الداعى لم يقترف ذنبًا واحدًا ولكنه اقترف ذنوبًا كثيرة ، وهذا بالنسبة للنبى ﷺ فهو ما يحسه من تقصير بترك الأولى فقط ، وهذا بالنسبة إلى غيره من الداعين اعتراف بكثرتها وفى إضافة الخطايا لضمير النفس قطع بأنها له وهو المتسبب فى جلبها لا أن غيره هو الذى جرَّه إليها ، كل ذلك استجلاب للمغفرة واستدرار للرحمة ، وإمعانًا فى التبرى من الذنب ومبالغة فى الاعتراف بالتقصير واستعطافًا وضراعة فى طلب العفو والغفران أتبع الدعاء بالمباعدة دعاءًا آخر هو منه بسبيل لأنه يشترك معه فى الغاية وهو قوله ﷺ : اللهم نقنى من الخطايا - وفى رواية مسلم : خطاياى - كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس .

وملاحظة لهذا الدعاء نجد أنه افتتح بمثل ما افتتح به جملة الضراعة السابقة " اللهم " بالنداء الجامع لكل الأسماء الحسنى حتى يكون ذلك أرجى للقبول وأدعى للإجابة ، والفعل " نقنى " يقال نقّى الشيء يَنْقَى من باب تعب نقاء بالفتح والمد نقاوة بالفتح نظف فهو نقىّ على فعيل ويعدّى بالهمزة وبالتضعيف " [١] ، ولعل هذا الدعاء الثانى يعد من قبيل الإلحاح وهو مطلوب ولاسيما إذا أحس الداعى بالتقصير البالغ تجاه ربه ودعاؤه وإلحاحه يشير إلى حقيقة مهمة ألا وهى الاعتراف بالعجز التام لأن صاحبه لا يدفع عن نفسه ما اقترفه بيده ، وهو أيضًا اعتراف بالذل والخضوع بأن مالك الأمر ومن بيده العفو والغفران هو الله تعالى ، وهذا مناسب لمقام الصلاة وإظهار العجز التام والذل التام ، وهذا من مقامات العبودية ، ومن أعبد من محمد ﷺ ؟ .

ويتجلى البيان النبوى فى دقة اختيار ألفاظه ، فمادة " نقى " تأتى بالهمز وبالتضعيف كما تقرر ولكن البلاغة العالية تأبى إلا اختيار اللفظة الملائمة وهى " نقنى " لا " أنقنى " لأن الأول أبلغ فى طلب التنقية من الثانى وفى هذا إتيان بالصيغة التى تدل على زيادة فى طلب التنقية وهو أليق بمقام التذلل لله سبحانه وتعالى فإنها تشعر أن العبد ملئ بالخطايا والذنوب فهو محتاج إلى المبالغة فى تنقيتها ، فكلما ازدادت الأوساخ ازدادت الحاجة إلى زيادة التنقية ، ثم فى ذكر الخطايا مرة أخرى وكان مقتضى الظاهر أن يعود الكلام عليها بضميرها وهذا من باب إظهار التذلل والتخضع وحرص على تذكر الذنب ليظل فى الوعى لا يغيب ، يزيدك البيان النبوى ترقيًا فى هذا الإقرار بالذنب حين يضيف الخطايا إلى نفسه مرة أخرى ، وهذا ما ورد فى رواية مسلم " خطاياى " وإمعانًا فى البيان

---

(١) ينظر فى ذلك : الصحاح للجوهرى ٧/ ٣٦٤ ، ولسان العرب ١٥/ ٣٣٨ ، والقاموس المحيط مادة " نقى " ، وتاج العروس للزبيدى ، تحقيق / مجموعة من المؤلفين ٤٠ / ١٢٢ ، طبعة دار الهداية ، وينظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، تحقيق / عبد السلام هارون ٥ / ٤٦٤ ، طبعة دار الفكر ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

والإيضاح يعيِّن هذه التنقية وأنها تنقية تشبه تنقية الثوب ليس على إطلاقه بل الثوب البيض على وجه الخصوص ، وأقول أى فائدة فى تخصيص الأبيض دون سائر الألوان ؟ مع أن التنظيف لا يدع أثرًا للوسخ فى الأبيض وفى غيره ذكر أهل العلم أن سر تخصيص الأبيض بالذكر لأنه " لما كان الدنس فى الثوب الأبيض أظهر من غيره من الألوان وقع التشبيه به " (١) ، وأزيدك سرًّا فى تخصيص البياض دون غيره لأن نقاء الأبيض الظاهرى لا يكون إلا بالنقاء الحقيقى باطنًا ، أما الألوان الأخرى فقد يظهر نقاؤها وهو فى الحقيقة يحتفظ بشىء من الدنس فى باطنه ، وأزيدك سرًّا آخر بأن فى تخصيص البياض بالذكر إشارة إلى أن الأصل فى الفطرة البياض وأن الغبش عارض عليها ، وهذه الجملة تدل على أن المراد بذلك الخطايا التى وقعت منه لأنه قال : نقنى منها كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس أى كما يغسل الثوب الأبيض إذا أصابه الدنس فيرجع أبيض ، وفى بناء الفعل " يُنقَّى " للمفعول إشارة إلى التركيز على الفعل وهو التنقية وحدها دون النظر إلى من وقع منه الفعل لأن الفعل حينئذ هو المطلوب لا غير .

هذا ... وإذا افترضنا فى الدعاء الأول أن الخطايا فى قوله : باعد بينى وبين خطاياى هى ما يحذره منها لا أنه وقع فى شىء منها بالفعل كانت الخطايا فى الدعاء الثانى – نقنى من الخطايا – هى التى وقع فيها بالفعل ، ولهذا يطلب التنظيف والتنقية فعلى هذا يكون التعبير ترقيًّا من الأدنى إلى الأعلى ، وإذا كانت الجملة الأولى بطلب المباعدة من الخطايا ، والثانية بطلب التطهير منها كانت الثانية بمثابة التأكيد لمضمون الأولى ولعل هذا هو سر الفصل الذى وقع بينهما وهو ما يسميه علماء البلاغة بكمال الاتصال بمعنى أن العلاقة والصلة التى وقعت بين الجملتين قد أغنت عن أى رابط بينهما ففصل بينهما لذلك لأن الشىء لا يعطف على نفسه – كما يقولون – وتأمل موقع البلاغة فى هذا ! وكيف فصل بينهما مع أن ما بينهما من الوصل المعنوى قد أغنى عن الوصل " بالواو " فهو فصل ووصل فى آن واحد تأمل !

---

(١) ينظر : فتح البارى لابن حجر ٢ / ٢٣٠ .

وإن كانت الجملة الثانية أعمق فى الدلالة على طلب الإزالة " والدنس : الوسخ وقد دنس الثوب يدنس دنسًا: توسخ وتدنس مثله ، ودنسه غيره تدنيسًا" [١] ، وقد صُرِّح بهذه اللفظة " الوسخ " فى بعض روايات الحديث [٢] ، وإذا كان المقصود بالتنقية والتنظيف للنفس كان التعبير مجازًا عن وزال الذنوب وأثرها مبنيًّا على التشبيه حيث شبه نظافة ذاته بنظافة الثوب الأبيض وفى استعمال التشبيه تقريب للمعانى وإدناء لها من الأفهام زيادة فى إيضاحها وبيانها ؛ لأن النفس بالمحسوس آنس ، وحينما تلقى إليها العبارة بهذه الطريقة تقع منها موقعًا حسنًا " لأن التمثيل بالمشاهدة يزيدك أنسًا كما يقول عبد القاهر " [٣] .

والقصد من هذا التشبيه أن يقلع عن الذنوب بالكلية كقلع الدنس من الثوب الأبيض بحيث لم يبق فيه أثر ما كأنه يقول إن الذنوب تدنس صاحبها وتوسخه فهى تكسب صاحبها قذرًا ووسخًا ودنسًا كثيرًا ، فهو بحاجة إلى ما يزيل ذلك الدنس ، ولهذا طلب التطهير والتنظيف لاسيما فى هذا الموقف المهيب ، وتخيل نفسك وقد علقت بك الأقذار وأنت تقف أمام شخص ما ماذا يكون إحساسك حينها ؟ ولأنت فى موقف الصلاة أولى منك بهذا الإحساس لأنك تقف بين يدى رب الأرباب ، تقف وأنت ذليل فقير إلى عفو ربك ولن تناله إلا إذا خلعت عن نفسك كل ذنب بالاعتراف أولاً ثم بالتخلى والتبرئة ثانيًا ، ثم بطلب الإعانة عليها ثالثًا ، وبذلك يتحقق سؤلك وتطمئن نفسك .

---

(١) ينظر فى ذلك : الصحاح للجوهرى ٤ / ٦٩ ، والقاموس المحيط مادة " دنس " ، ولسان العرب ٦ / ٨٨ ، والنهاية فى غريب الحديث والأثر ٢ / ٣٣٥ .

(٢) ينظر : صحيح مسلم ٢ / ٤٧ ، حديث رقم ١٠٩٧ ، طبعة دار الجيل ، ومسند أحمد ، تحقيق / شعيب الأرناؤوط وآخرين ٣١/ ٤٦٢ ، حديث رقم ١٩١١٨، طبعة مؤسسة الرسالة، طبعة ثانية١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م ، والمستخرج على صحيح مسلم لأبى نعيم الأصفهانى ، تحقيق / محمد حسن إسماعيل الشافعى ٢ / ٩١ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

(٣) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجانى ، تعليق / محمود شاكر ص ١٢٧ ، طبعة دار المدنى بجدة ، طبعة أولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م .

والمد النبوى زاخر وعطاؤه لا يغيض تكتنفه الأسرار من كل جانب وهو يسلمك من دعاء إلى دعاء ، ومن رجاء إلى رجاء لم يتوقف الدعاء والطلب والضراعة عند حد مباعدة الخطايا ولا التنقية منها ، بل زاد حتى وصل النهاية فى طلب المحو والتخلص منها بكل سبيل ، وها هى الجملة الدعائية الأخيرة من هذا الحديث النبوى تطالعك بهذا : اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد .. وإذا كانت التنقية تخلية فالغسل تحلية وهو إمعان فى النظافة ، وهذا ترقّ فى الأسلوب حتى يصل منتهاه ؛ لأن المقام يتطلبه ذلك أن العبد الخاشع الضارع لابد أن يهتبل هذه الفرصة وهو مقبل على مولاه ، فالذى أقامه بين يديه فى هذه الصلاة التى هى معراج روحه إلى ربه هو الذى يعطى ويمنع وعطاؤه لا حد له ، وتأمل معى قوله ﷺ : " اللهم اغسل خطاياى " وقد حرص البيان النبوى أن يدعو بمجموع أسماء الله الحسنى " اللهم " كما ابتدأ بها دعاءه من قبل فى طلب المباعدة والتنقية وكأنها تضفى على العبارة جوًّا من التفخيم والتعظيم مما يجعلها أكثر ملائمة مع جو السؤال والدعاء فى مقام يتطلب الخشوع والإخبات وكأن بها أملاً واطمئنانًا يملأ نفس الداعى بها فيجد فى ترديدها راحة ويجد فى تكريرها لذة، وكيف لا ؟ وهى اسم الله الأعظم الجامع لكل الأسماء الحسنى ، قال الإمام البغوى : " اللهم اغسلنى بالثلج والماء والبرد أى طهرنى من الذنوب ، وذكر كله مبالغة فى مسألة التطهير لا أنه يحتاج إلى ثلج وبرد " (١) .

ولا يفوتنى أن أنبه إلى إضافة الخطايا إلى نفسه مرة ثالثة مع التصريح بذكرها ، وكان مقتضى الظاهر أن يذكر ضميرها للتصريح بها فى العبارة السابقة ، وأرى سر هذا العدول هو التمسك بحالٍ يرى أن التمسك به فى هذا المقام أدعى للإجابة ، وهذا يعكس صدق مقصده ووضوح مراده ، هو أولًا وآخرًا يطلب عفو ربه ورحمته ، وإذا كانت هذه الطريقة بإظهار خطاياه واعترافه بها هى المخلص الوحيد له فلماذا لا يسلكها وهو يعلم تمام العلم ويوقن غاية اليقين أنه عبد لله

---

(١) شرح السنة للبغوى ، تحقيق / شعيب الأرناؤوط ، ومحمد زهير الشاويش ٣ / ٤٠ ، المكتب الإسلامى ، دمشق ، بيروت ، طبعة ثانية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

ليس له منجى ولا ملجأ إلا إليه ، وفى ذلك إشارة إلى تام العبودية وإشارة أيضًا إلى ثقته ﷺ الكاملة بعفو ربه .

وفى رواية مسلم – اغسلنى من خطاياى – إشارة على أن الخطايا قد غطت عليه حتى شملته بخلاف رواية البخارى – اغسل خطاياى – وإن اشتركا فى إضافة الخطايا إلى ضمير النفس ، ففى رواية مسلم المغسول هو الداعى ، وفى رواية البخارى المغسول هى الخطايا ، ولعل رواية مسلم أليق بمقام الداعى المتضرع الذى قد ضاق ذرعًا بذنوبه من كثرة ما تلبست به وغطت جسده كله فلم يجد بدًّا من أن يهرع إلى خالقه ومولاه ، وكأنه يقول بلسان الحال طهرنى طهرنى ، وإن كان الغسل ليس على حقيقته بالنسبة لنفسه وبالنسبة لذنوبه ، ولهذا كان التعبير من باب المجاز فى غسله أو غسل ذنوبه ، وإن كانت العبارة فى جملتها " كناية عن تكفير الخطايا مع إيجاد الطمأنينة وسكون القلب ، والعرب تقول : برد قلبه أى سكن واطمأن " [١] ، والماء معروف ويقصد به الماء المطلق ، وحكمه أنه طهور أى أنه طاهر فى نفسه مطهر لغيره ، ويشمل المطر والثلج والبرد ، ولقوله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ [٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴾ [٣] ، وقد شغل هذا العطف – أعنى عطف الثلج والبرد على لفظ الماء – شراح الحديث فالتمسوا لذلك التعداد وجوهًا إذ كان يكفى أن يذكر الماء وحده لطلب الغسل ، ويكرر مرارًا ولاسيما وأن هذه الأشياء الثلج والبرد هى فى الأصل ماء ، ذكر أهل العلم أن " الثلج يقال ثلج الماء ونحوه ثلوجًا : برد وقالوا هو ما جمد من الماء بالنهار والليل " [٤] ، وذكروا أن البَرَد " بفتحتين

---

(١) ينظر : حجة الله البالغة للشيخ / أحمد شاه ولى الدهلوى ، تعليق / محمد شريف سكر ١ / ٤٢٦ – طبعة دار إحياء العلوم ، بيروت ، لبنان ، طبعة ثانية ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م.

(٢) سورة الأنفال : من الآية ١١ .

(٣) سورة الفرقان : من الآية ٤٨ .

(٤) ينظر فى هذا : المخصص لابن سيده ، تحقيق/ خليل إبراهيم جفال ٢/ ٤٣٥ ، طبعة دار

شىء ينزل من السحاب يشبه الحصى ويسمى حب الغمام وحب المزن وأنه كذلك ما يبرد من المطر فى الهواء فيصلب ، تقول منه بردت الأرض بالضم وبرد بنو فلان " [١] ، وفى هذا التعداد بذكر الثلج والبرد ما يشير إلى اهتمام الداعى ﷺ بشأن هذه الذنوب ورغبته فى محوها محوًا لا يبقى له أى أثر ، قال العلماء فى ذكر الثلج والبرد بعد الماء " قال الخطابى هذه أمثال ولم يرد بها أعيان هذه المسميات وإنما أراد بها التوكيد فى التطهير من الخطايا والمبالغة فى محوها عنه ، والثلج والبرد ماءان لم تمسهما الأيدى ولم يمتهنهما استعمال فكان ضرب المثل بهما أوكد فى بيان معنى ما أراده من تطهير الثوب ، وقال ابن دقيق العيد : عبر بذلك عن غاية المحو فإن الثوب الذى يتكرر عليه ثلاثة أشياء منقية يكون فى غاية النقاء ، قال : ويحتمل أن يكون المراد أن كل واحد من هذه الأشياء مجاز عن صفة يقع بها المحو وكأنه كقوله تعالى : ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ [٢] ، وأشار الطيبى إلى هذا فقال ويمكن أن يكون المطلوب من ذكر الثلج والبرد بعد الماء شمول أنواع الرحمة والمغفرة بعد العفو لإطفاء حرارة عذاب النار التى هى فى غاية الحرارة ، ومنه قولهم : برد الله مضجعه أى رحمه ووقاه عذاب النار . أ . هـ .

إحياء التراث العربى ، بيروت ، طبعة أولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م ، ولسان العرب ٢ / ٢٢٢ ، وكتاب العين ٦ / ٩٨ ، والنهاية فى غريب الحديث والأثر ١ / ٦٣٤ ، وتهذيب اللغة للأزهرى ، تحقيق / محمد عوض مرعب ١١ / ١٧ ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، طبعة أولى ٢٠٠١ م .

(١) ينظر فى ذلك : كتاب العين ٨ / ٢٧ ، ولسان العرب ٣ / ٨٢ ، والصحاح للجوهرى ٣ / ٨ ، والفائق فى غريب الحديث للزمخشرى ، تحقيق / على البجاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ٢ / ٢٣١ ، وغريب الحديث لابن قتيبة ، تحقيق د / عمر الجبورى ١ / ٥٠٤ ، طبعة مطبعة العانى ، بغداد ، طبعة أولى ١٣٩٧ هـ ، وغريب الحديث لابن الجوزى ، تحقيق د / عبد المعطى قلعجى ٢ / ١٨٢ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٨٥ م .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٨٦ .

ويؤيده ورود وصف الماء بالبرودة فى حديث عبد الله بن أبى أوفى عند مسلم : " اللهم طهرنى بالثلج والبرد والماء البارد " [١] ، وكأنه جعل الخطايا بمنزلة جهنم لكونها مسببة عنها ، فعبر عن إطفاء حرارتها بالغسل وبالغ فيه باستعمال المبردات ترقيًا عن الماء إلى أبرد منه ، وقال التوربشتى : " ذكر أنواع المطهرات المنزلة من السماء التى لا يمكن حصول الطهارة الكاملة إلا بأحدها بيانًا لأنواع المغفرة التى لا تخلص من الذنوب إلا بها أى طهرنى بأنواع مغفرتك التى هى فى تمحيص الذنوب بمثابة هذه الأنواع الثلاثة فى إزالة الأرجاس ورفع الأحداث " [٢] .

وكلام الطيبى السابق الذى أشار فيه إلى أن ذكر الثلج والبرد بعد الماء لطلب شمول الرحمة بعد المغفرة هو من باب " رأيته متقلدًا سيفًا ورحمًا " [٣] ، وزاد الكرمانى أنه " يحتمل أن يكون فى الدعوات الثلاث إشارة إلى الأزمنة الثلاثة فالمباعدة للمستقبل والتنقية للحال والغسل للماضى وكأن تقديم المستقبل للاهتمام بدفع ما سيأتى قبل رفع ما حصل " [٤] .

---

(١) ينظر : صحيح مسلم ٢ / ٤٧ ، حديث رقم ١٠٩٧ ، طبعة دار الجيل ، ودار الآفاق الجديدة ، بيروت .

(٢) ينظر بتصرف : فتح البارى لابن حجر ٢ / ٢٣٠ ، وعمدة القارى ٩ / ٦٢ ، وعون المعبود ٢ / ٣٤٤ ، وفتح البارى لابن رجب الحنبلى ، تحقيق / أبى معاذ طارق بن عوض الله ٤ / ٣٤٢ وما بعدها ، طبعة دار ابن الجوزى ، السعودية ، الدمام ، طبعة ثانية ١٤٢٢ هـ .

(٣) هو إشارة إلى بيت لعبد الله بن الزبعرى : [يَا لَيتَ زَوجَكِ قَد غَدا مُتَقَلِّداً سَيفَاً وَرُمحا] . ينظر : خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموى ، تحقيق / عصام شعيتو ٢ / ٢٧٥ ، طبعة دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٨٧ م ، والكامل فى اللغة والأدب للمبرد ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ١ / ٢٩١ ، طبعة دار الفكر العربى ، القاهرة ، طبعة ثالثة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م ، وينظر : اللآلئ فى شرح أمالى القالى لعبد الله بن عبد العزيز البكرى ، تحقيق / عبد العزيز الميمنى ٣ / ٢٥ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، طبعة أولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .

(٤) ينظر : فتح البارى لابن حجر ٢ / ٢٣٠ .

وأقول كل هذه الاحتمالات يحتملها ظاهر الحديث ، وكلها تدل على دقة اختيار الألفاظ النبوية التى تناسب المقام والتى تتسع وتمتد حتى تفى باحتياجات النفس التى ترى فى الوقوف بين يدى الله منتهى العبودية ، وترى أيضًا أن طرح الذنوب على عتبة العبودية هو الذى يليق بالعبد الخاشع فى حضرة مناجاة ربه ، وما المانع أن يكون فى ذكر البرد زيادة على ذكر الماء إشارة إلى مكان تنزل الرحمات ، وأنها إنما تسقط من السماء فتكون حديثة عهد بربها كما ورد فى الحديث الذى رواه أنس قال: أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر ، قال : فحسر رسول الله ﷺ ثوبه حتى أصابه من المطر ، فقلنا : يا رسول الله لم صنعت هذا قال : لأنه حديث عهد بربه تعالى " [١] .

وتأمل معى هذا الفعل وانظر على أى شىء يدل ؟ إن الإنسان المحب يرى محبوبه فى كل شىء يحوطه وكل شىء جميل حوله يبعث فى نفسه شوقًا إلى محبوبه فتراه يتطلع إليه ويتلهف نحوه ، فالمطر النازل من السماء قريب العهد بربه ولم يلبث أن كان فى جنابه عبقًا من جواره تفوح منه روائح الروح والريحان ، فماله لا يتطلع نظره إلى البرد يرى فيه تبريدًا لأحاسيسه ويرى فيه انعتاق نفسه من لهيب حرارة المعصية ، وهو كذلك حديث عهد بربه تعالى ، أما الثلج فلأن الذنوب والخطايا تترك فى النفس ألمًا وحرارة لا يشعر بها أى مذنب ، بل مذنب خاشع ضارع يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه فتراه يميل نحو إطفاء هذه الحرارة وتسكينها ومحو أثرها وهذا من عمل الثلج وبإضافة الثلج والبرد إلى الماء الطهور تكتمل العناية بالثوب فيطهر ، وهذا هو المقصود الأعظم من وراء هذه الدعوات الثلاث حصول الطهارة والنقاء ، وأضيف إن الأسلوب النبوى الشريف قد بلغ الدرجة القصوى فى البلاغة البشرية حيث عمد إلى ترتيب الترقى من الأدنى إلى الأعلى ؛ ذلك أن البرد هو أفضل هذه الثلاثة وأنقاها وأبعدها عن

---

(١) ينظر : صحيح مسلم ٣/ ٢٦ ، حديث رقم ٢١٢٠ ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، ومسند أحمد ١٩ / ٣٦٤ ، حديث رقم ١٢٣٦٥ ، وصحيح ابن حبان ١٣ / ٥٠٥ ، حديث رقم ٦١٣٥ .

النجاسة ، ثم الثلج لأنه وإن علقت به نجاسة فإنها بذوبانه ستنفك عنه فيعود إلى صفائه ونقائه ، وثالثها الماء وبهذا يكون الأسلوب النبوى قد بدأ بالماء وثنى بما هو أبلغ فى الطهارة منه ثم بما هو الغاية فى الطهارة والنقاء ليكون تطهير ذنوبه على أكمل وجه يطلبه ويتغياه ، وإذا كان من المعلوم أن الماء الساخن أبلغ فى إزالة الأوساخ والإنقاء مما هو مذكور فى الدعاء المأثور فكيف عدل عنه إلى الثلج والبرد مع أن المطلوب طلب الإنقاء والتنظيف وقد حصل من العلماء تلمسات كثيرة فى طلب المناسبة ولعل أحسنها ما ذكره ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية : قال " سألت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النبى ﷺ اللهم طهرنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد ... " كيف يطهر الخطايا بذلك وما فائدة التخصيص بذلك وقوله فى لفظ آخر والماء البارد والحار أبلغ فى الإنقاء ؟ فقال : الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفًا فيرتخى القلب وتضطرم فيه نار الشهوة وتنجسه فإن الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذى يمد النار ويوقدها ، ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه والماء يغسل الخبث ويطفئ النار ، فإن كان باردًا أورث الجسم صلابة وقوة ، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى فى التبريد وصلابة الجسم وشدته فكان أذهب لأثر الخطايا ، هذا معنى كلامه وهو محتاج إلى مزيد بيان وشرح ، فاعلم أن ههنا أربعة أمور : أمران حسيان ، وأمران معنويان ، فالنجاسة التى تزول بالماء هى ومزيلها حسيان ، وأثر الخطايا التى تزول بالتوبة والاستغفار هى ومزيلها معنويان ، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا ، وهذا ، فذكر النبى ﷺ من كل شطر قسمًا نبه على القسم الآخر فتضمن كلامه الأقسام الأربعة فى غاية الاختصار وحسن البيان " [١] .

ولعل الشيخ يشير فى نهاية حديثه إلى لون من ألوان البلاغة النبوية أسماه البلاغيون بالاحتباك [٢] .

---

(١) ينظر : إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ، تحقيق / محمد حامد الفقى ١ / ٥٧ ، طبعة دار المعرفة ، بيروت ، طبعة ثانية ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

(٢) الاحتباك : " هو أن يحذف من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله فى الأواخر ، ويحذف من

وبعد هذه التطوافة الرائقة فى بستان التضرع والدعاء النبوى التى تجلت فيه أعلى صور البلاغة وتبدت فيه أليق الألفاظ التى تناسب معانيها ، والتى أدت فيه البلاغة حق الوقوف أمام ذى العزة والجلال بعد الشروع فى الصلاة بتكبيرة الإحرام – الله أكبر – أقول إن القلب الخاشع الذى ينطق بهذه الكلمة عبر لسانه والتى يصغر أمامها كل شىء ، ويتلاشى دونها كل كائن لهو قلب حقيق بأن يهرع إلى الله باللجوء والاعتراف والتجرد وطرح كل شىء يشغل ولو حيزًا ضئيلاً من نفسه وفكره . تأمله وهو يتابع فى نغمة متواصلة ووتيرة شاجية ضارعة : اللهم باعد.. اللهم نقنى .. اللهم اغسلنى .. " بدءًا بالنداء المفخم ، ثم بما يتلوه من دعاء وضراعة مما يعكس إحساسه بالتقصير فى جنب الله ، وليت شعرى أىّ ذنب وأى خطيئة اقترفتها تلكم النفس الطاهرة التى كان من جملة الشرع وصميم الإيمان أن نؤمن بأنها قد غفر لها ما تقدم من ذنبها وما تأخر .

يقول أهل العلم : " ومثل هذا السؤال منه ﷺ من باب إظهار العبودية وتعظيم الربوبية وإلا فهو مع عصمته مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر لو كان هناك ذنب ، وقيل إن الاستغفار له زيادة خير ، والمغفرة حاصلة بدون ذلك لو كان هناك ذنب وفيه إرشاد للأمة إلى الاستغفار " [١] ، وذكر ابن بطال ما يتفق مع هذا وهو أن الأنبياء أشد الناس اجتهادًا فى العبادة لما أعطاهم الله تعالى من المعرفة، فهم دائبون فى شكره معترفون بالتقصير ، فكأن الاستغفار من التقصير فى أداء الحق الذى يجب لله تعالى " [٢] . أ . هـ .

الأواخر ما جاء نظيره أو مقابله فى الأوائل " . ينظر فى ذلك : الإيضاح ، تحقيق خفاجى ، والإتقان للسيوطى ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ٣ / ٢٠٤ ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ، وعقود الجمان للسيوطى ١ / ٢٦ ، طبعة الحلبى بمصر ، طبعة ثانية ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م ، والبلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ، د / عبد الرحمن الميدانى ٢ / ٥٤ ، طبعة دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، طبعة أولى ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

(١) ينظر : فتح البارى لابن حجر ٢ / ٢٣٠ ، ومشكاة المصابيح للتبريزى ٣ / ١٨١ .

(٢) ينظر بتصرف : شرح صحيح البخارى لابن بطال ، تحقيق / أبو تميم ياسر بن إبراهيم ٣ /

كلامه – رحمه الله – هذا ... وقد وردت أحاديث صحيحة فى دعاء الاستفتاح عن النبى ﷺ ولكن ذكر بعض أهل العلم أنها مخصوصة بصلاة الليل يعنى القيام لا الفريضة ، وقد اكتفيت فى دعاء الاستفتاح بأصح ما ورد فيه بشهادة أهل العلم حيث ذكروا أن حديث أبى هريرة " اللهم باعد... الحديث " هو أصح الأحاديث الواردة فى الاستفتاح [١] .

---

١١٠ ، طبعة مكتبة الرشد ، السعودية ، الرياض ، طبعة ثانية ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣م.

(١) ينظر بتصرف : فتح البارى لابن حجر ٢ / ٢٣٠ ، وتحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ، محمد عبد الرحمن المباركفورى ٢ / ٤٦ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، وتحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين ١ / ١٥٢ ، وأصل صفة صلاة النبى ﷺ للشيخ الألبانى ١ / ٢٤٠ ، طبعة مكتبة المعارف ، الرياض ، طبعة أولى ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م ، ومجموع فتاوى ابن باز ، أشرف على جمعه وطباعته : محمد بن سعد الشويعر ٢٩ / ٢٤٥ ، موقع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء ، والدرارى المضية شرح الدرر البهية للشوكانى ١ / ١١٢ ، طبعة دار الجيل ، بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، والشرح الممتع على زاد المستقنع لابن عثيمين ٣ / ٤٨ ، طبعة دار ابن الجوزى ، طبعة أولى ١٤٢٢ هـ .

المبحث الثانى
ما يقال من الدعاء فى الركوع

الدعاء الأول :

عن حذيفة أنه صلى مع النبى ﷺ فكان يقول فى ركوعه : " سبحان ربى العظيم ، وفى سجوده: سبحان ربى الأعلى ، وما مر بآية رحمة إلا وقف عندها فسأل ، ولا بآية عذاب إلا وقف عندها فتعوذ " [١] واللفظ لأبى داود .

هذا الدعاء هو أشهر ما ورد فى الركوع ، وقد وردت أدعية أخرى لم تبلغ مبلغ هذا الدعاء من الصحة والشهرة، كذلك ربما كان ما ورد من أدعية الركوع خاصًّا بالنافلة ، أما هذا الدعاء فهو لصلاة الفريضة والنافلة على السواء ، وقد ذكر العلماء أنه مهما أتى العبد بدعاء فى الركوع فإنه لا يكون قد أتى بالسنة إلا إذا ذكر هذا الدعاء ، وقد وردت أحاديث صحيحة تؤكد على هذا القول ، والناظر ابتداء لهذا الحديث ربما يتعجب ماذا عساه أن يطلع فيه على ألوان بلاغية ؟ وأقول ربما كان هذا القول دليلاً على امتلائه مع قلة عدد كلماته ، فمن شدة الظهور الخفاء فأقول وبالله التوفيق :

التسبيح فى اللغة معناه التنزيه والتقديس ، جاء فى معاجم اللغة : " التسبيح : التنزيه وسبحان الله معناه التنزيه لله نصب على المصدر كأنه قال أبرئ الله من السوء براءة ، وسبحت الله وسبحت له وهو السبوح القدوس " [٢] ،

---

(١) ينظر : صحيح مسلم ٢ / ١٨٦ ، حديث رقم ١٨٥٠ ، وسنن أبى داود ١ / ٣٢٥ ، حديث رقم ٨٧١ ، طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت ، وسنن الترمذى ، تحقيق / أحمد شاكر وآخرين ٢ / ٤٨ ، حديث رقم ٢٦٢ ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، وسنن النسائى (المجتبى من السنن) ، تحقيق / عبد الفتاح أبو غدة ٢ / ١٩٠ ، حديث رقم ١٠٤٦ ، طبعة مكتبة المطبوعات الإسلامية ، حلب ، طبعة ثانية ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، والمستدرك للحاكم ، تحقيق / مصطفى عبد القادر عطا ١ / ٤٦٦ ، حديث رقم ١٢٠١ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .

(٢) ينظر : أساس البلاغة ١ / ٤١٨ ، والصحاح للجوهرى ٢ / ٣٩٥ ، والفائق فى غريب

وجاء فى القاموس : " وسبحان الله تنزيهًا لله من الصاحبة والولد ... ونصب على المصدر أو معناه السرعة إليه والخفة فى طاعته " (١) ، وقالوا أصل التسبيح : " التنزيه والتقديس والتبرئة من النقائص ثم استعمل فى مواضع تقرب منه اتساعًا ، يقال سبحته أسبحه تسبيحًا وسبحان فمعنى سبحان الله تنزيه الله وهو نصب على المصدر بفعل مضمر كأنه قال أبرئ الله أو هو واقع موقع المصدر ولا يستعمل غالبًا إلا مضافًا كقولنا سبحان الله وهو مضاف إلى المفعول به أى سبحت الله تعالى لأنه المسبح المنزه " (٢) ، أما الرب فقد جاء فى معجم مقاييس اللغة أن الراء والباء يدل على أصول فالأول إصلاح الشىء والقيام عليه فالرب المالك والخالق والصاحب ، والرب المصلح للشىء يقال رب فلان ضيعته إذا قام على إصلاحها ... والله جل ثناؤه الرب لأنه مصلح أحوال خلقه " (٣) وقال الجوهرى : " رب كل شىء مالكه والرب اسم من أسماء الله عز وجل ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة ... وربيت القوم سستهم أى كنت فوقهم ... ورب فلان ولده يربه ربًّا ، وربيه وتربيه بمعنى أى رباه " (٤) ، وقال الطبرى : " فربنا جل ثناؤه السيد الذى لا شبه له ولا مثل فى سؤدده والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه والمالك الذى له الخلق والأمر ، وقيل هو الذى يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها ، وقيل هو السيد والمالك والمتصرف " (٥) .

الحديث للزمخشرى ٤ / ٢٣ .

(١) ينظر : القاموس المحيط مادة " سبح " ، وينظر : المحيط فى اللغة للصاحب بن عباد ، تحقيق الشيخ / محمد حسن آل ياسين ٢ / ٤٩٥ ، طبعة عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، طبعة أولى ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، والمخصص لابن سيده ٥ / ٢٣٣ .

(٢) ينظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢ / ٨٣٣ ، وتاج العروس ٦ / ٤٤٥ ، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ، تحقيق / مصطفى عبد القادر عطا ١ / ١١٥١ .

(٣) ينظر : مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ٢ / ٣٨١ ، والنهاية فى غريب الحديث والأثر ٢ / ٤٥٠ .

(٤) ينظر الصحاح ٢ / ١٤٧ ، واللسان ١ / ٣٩٩ .

(٥) ينظر فى ذلك : تفسير الطبرى ، تحقيق أحمد شاكر ١ / ١٤٢ ، طبعة مؤسسة الرسالة ،

وإذا كان الرب فى اللغة هو المربى والمصلح والمالك والسيد والمتصرف وأن هذا اللفظ لا يطلق مجردًا إلا على الله تعالى كان لا يختلف معناه فى اللغة عن مفهومه عند علماء الشرع ، فقد ذكر الإمام البيهقى قال : " قال الحليمى فى معنى الرب : هو المبلغ كل ما أبدع حد كماله الذى قدره له ، فهو يسل النطفة من الصلب ثم يجعلها علقة ثم العلقة مضغة ثم يخلق المضغة عظامًا ثم يكسو العظام لحمًا ثم يخلق فى البدن الروح ويخرجه خلقًا آخر وهو صغير ضعيف فلا يزال ينميه وينشيه حتى يجعله رجلاً ويكون فى بدء أمره شابًّا ثم يجعله كهلاً ثم شيخًا وهكذا كل شىء خلقه فهو القائم عليه والمبلغ إياه الحد الذى وضعه له وجعله نهاية ومقدارًا له " (١) .

وهذا لا يختلف مع قول أهل اللغة أنه المربى والمالك والمصلح وحذار أن يفهم أن الله تعالى قد استحق هذا الاسم بعدما خلق وأبدع وأنشأ وربى ، لا بل هذا الاسم ثابت له قديم بقدمه فكما قال الإمام الطحاوى : " له معنى الربوبية ولا مربوب ومعنى الخالق ولا مخلوق " (٢) ، معنى هذا أن الله تعالى موصوف بأنه الرب قبل أن يوجد مربوب ، وموصوف بأن خالق قبل أن يوجد مخلوق ، قال الإمام بدر الدين العينى : " قال الواسطى فى معنى الرب : هو الخالق ابتداء والمربى غذاءً والغافر انتهاءً وهو اسم الله الأعظم ، والرب المربى المصلح للشأن ... " (٣) .

بيروت ، طبعة أولى ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، وتفسير ابن كثير ، تحقيق محمود حسن ١ / ٣٣ ، طبعة دار الفكر الطبعة الجديدة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، وينظر : مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥ / ٥ ، وبدائع الفوائد لابن القيم ٥ / ١٨٥ .

(١) الأسماء والصفات للبيهقى ، تحقيق / عبد الرحمن الحاشدى ١ / ١٨٤ وما بعدها ، مكتبة السوادى ، جدة ، طبعة أولى .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفى ، تحقيق / أحمد شاكر ١ / ٢٢٤ ، طبعة وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، السعودية ١٤١٨ هـ .

(٣) شرح أبى داود للعينى ، تحقيق / أبى المنذر خالد إبراهيم المصرى ٢ / ٤٩٢ ، طبعة مكتبة الرشد ، الرياض ، طبعة أولى ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .

وقوله " العظيم " هو فى اللغة صفة مشبهة لمن اتصف بالعظمة فعله عظم يعظم عظمًا يعنى كبر واتسع وعلا شأنه وارتفع ، ولفلان عظمة عند الناس أى حرمة يعظم بها وأعظم الأمر وعظمه : فخَّمه ، والتعظيم : التبجيل ، والعظيمة النازلة الشديدة والملمة إذا أعضلت ، والعظمة الكبرياء ، وعظمة العبد : كبره المذموم وتجبره ، وإذا وصف العبد بالعظمة فهو ذم لأن العظمة فى الحقيقة لله عز وجل " (١) .

وقال الإمام الغزالى : " اعلم أن اسم الله العظيم فى أول الوضع إنما أطلق على الأجسام ، يقال هذا جسم عظيم وهذا الجسم أعظم من ذلك الجسم إذا كان امتداد مساحته فى الطول والعرض والعمق أكثر منه ، ثم هو ينقسم إلى عظيم يملأ العين ويأخذ منها مأخذًا وإلى مالا يتصور أن يحيط به البصر بجميع أطرافه كالأرض والسماء فإن الفيل عظيم ولكن البصر قد يحيط بأطرافه فهو عظيم بالإضافة إلى ما دونه ، وأما الأرض فلا يتصور أن يحيط البصر بأطرافها وكذا السماء ، فذلك هو العظيم المطلق فى مدركات البصر فافهم أن فى مدركات البصائر أيضًا تفاوتًا فمنها ما تحيط العقول بكنه حقيقته ، ومنها ما تقصر العقول عنه ، وما تقصر العقول عنه ينقسم إلى ما يتصور أن يحيط به بعض العقول وإن قصر عنه أكثرها وإلى ما لا يتصور أن يحيط العقل أصلاً بكنه حقيقته وذلك هو العظيم المطلق الذى جاوز جميع حدود العقول حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وذلك هو الله تعالى " (٢) .

وإذا كان معنى التسبيح : التنزيه والتقديس للرب وهو المربى والمالك والمصلح وكان من أسمائه أنه الذى بلغ النهاية فى العظمة التى تقصر عن

---

(١) لسان العرب ١٢ / ٤١٠ .

(٢) المقصد الأسنى فى شرح معانى أسماء الله الحسنى للغزالى ، تحقيق / بسام عبد الوهاب الجابى ١ / ١٠٤ ، طبعة الجفان والجابى ، قبرص ، طبعة أولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، وينظر : تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ، تحقيق / أحمد يوسف الدقاق ١ / ٤٦ ، دار الثقافة العربية ، دمشق ١٩٧٤ م .

إدراكها فضلاً عن الإحاطة بها العقول والبصائر كان اختيار النبى ﷺ لهذا الدعاء بهذه الصيغة التى وافت على سنن البلاغة فى هذا الموطن موطن الركوع كان اختياره فى غاية المناسبة ، وهذا الركن يتطلب من العبد الراكع برهنة على صدق ركوعه وخشوعه ، ولا أدل على ذلك من تعظيمه الله تعالى وتنزيهه وتقديسه على هذه الحال ، وانظر إلى بلاغته ﷺ وكم كان ربانيًّا فعندما نزل قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (١) قال اجعلوها فى ركوعكم ، وعندما نزلت : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ (٢) قال اجعلوها فى سجودكم (٣) ، فاختار الناس تعظيم الله فى حال الخضوع وهو الركوع وحتى لا يتصور أن الركوع مجرد انحناء فقط، بل هو من أجل العبادات لأن أعلى درجات العبودية هى إظهار الذل التام ، والراكع يكون فى حاله مخبتًا منيبًا متواضعًا متخشعًا متذللاً لربه خاضعًا بين يديه ، قد خفض رأسه ، والأمر فى الركوع بالتعظيم يستدعى أن يؤتى بالأذكار التى فيها تعظيم الله تعالى وتنزيهه وتقديسه ، كل ذلك ليستحضر العبد عظمة ربه وأنه خاشع خاضع ، فيوجب له ذلك الانكسار الذى يوجب رحمة الله تعالى ، يقول ابن القيم – رحمه الله – : " فثناء العبد على ربه فى هذا الركن هو أن يحنى له صلبه ويضع له قامته وينكس له رأسه ويحنى له ظهره ويكبر معظمًا له ناطقًا بتسبيحه المقترن بتعظيمه فاجتمع له خضوع القلب وخضوع الجوارح وخضوع القول على أتم الأحوال ، ويجتمع له فى هذا الركن من الخضوع والتواضع والتعظيم والذكر ما يفرق به بين الخضوع لربه والخضوع للعبيد بعضهم لبعض ، فإن الخضوع وصف العبد والعظمة وصف الرب ، وتمام عبودية الركوع أن يتصاغر الراكع ويتضاءل لربه بحيث يمحو تصاغره لربه من قلبه كل تعظيم فيه لنفسه ولخلقه

---

(١) سورة الواقعة : ٧٤ ، ٩٦ .

(٢) سورة الأعلى : ١ .

(٣) ينظر الحديث فى : مستدرك الحاكم ٢ / ٥١٩ ، حديث رقم ٣٧٨٣ ، ومسند أحمد ٢٨ / ٦٣٠ ، حديث رقم ١٧٤١٤ ، وينظر : المعجم الكبير للطبرانى ، تحقيق / حمدى بن عبد المجيد السلفى ١٧ / ٣٢٢ ، حديث رقم ١٤٥٧٧ ، طبعة مكتبة العلوم والحكم ، الموصل ، طبعة ثانية ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م .

ويثبت مكانه تعظيم ربه وحده لا شريك له إذا عظم القلب الرب خرج تعظيم الخلق وكلما استولى على قلبه تعظيم الرب وقوى خرج منه تعظيم الخلق وازداد تصاغره هو عند نفسه ، فالركوع للقلب بالذات والقصد والجوارح بالتبع والتكملة"[١] .

وفى اختيار اسم " الرب " كمال الاعتراف بنعم الله تعالى ، وفيه استعطاف، وفى إضافة هذا الاسم الجليل إلى ضمير النفس من كل راكع ولاسيما خير راكع ﷺ لجوء إلى الركن الشديد وتعريض بقبول التذلل والخضوع وكأن المعنى إذا لم يقبل خضوعى وذُلِّى من ربانى وتولانى وهو أعلم بنفسى منى فمن يكون إذاً ؟ .

وفى ذكر " العظيم " إعلان من العبد أنه مهما تضرع وتخضع ومهما بذل حشاشة نفسه ومهما تضاءل وتصاغر وانحنى صلبه وخشع قلبه فلن يوفى لله حقه من الخشوع والخضوع لأنه لما لم يكن لله العظيم حدّ أو تصور تقف عنده العقول والبصائر فكذلك ينبغى ألا يكون لتعظيمه وتقديسه حد أو تصور ولكن العبد يتقرب إلى الله بما فى استطاعته وهو يعلم أنه لن يوفى لله حقًّا ، ولهذا أعلن فى أول دعائه التنزيه المطلق والتقديس الكامل ، ولعل هذا سرٌّ من أسرار إيثار المصدر " سبحان " على " أسبح " مثلاً ، فالمصدر – كما هو معلوم – أدل على الدوام والثبوت من الفعل وكأنه يقول : التنزيه لك دائم وثابت وَفَّيْنا حقك أم لم نوفِّك ، والله أعلم .

الدعاء الثانى :

عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : "كان النبى ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى " [٢] .

---

(١) ينظر : أسرار الصلاة لابن القيم ١ / ١٨ .

(٢) صحيح البخارى ، باب الدعاء فى الركوع ٢ / ٢٠٤ ، حديث رقم ٧٩٤ ، وصحيح مسلم ، باب ما يقال فى الركوع والسجود ٢ / ٥٠ ، حديث رقم ١١١٣ ، طبعة دار الجيل ، والآفاق الجديدة ، بيروت .

هذا الحديث ظاهر الصحة والدعاء فيه يأتى فى المرتبة الثانيــة لــدعاء الحديث السابق " سبحان ربى العظيم " حتى إن بعض العلماء يــرى ضــرورة أن يذكر المصلى دعاء سبحان ربى العظيم فى ركوعه ولا يقل عن ثلاث مرات فــى الركعة الواحدة ، ويرى فى تركه إثمًا ، أما هذا الدعاء فلا يرى أحــد إثمًــا فــى تركه، ولهذا بدأت بالأولى وأردت أن أشير إلى بعض الجوانب البلاغية فــى هــذا الحديث ، ولعل فى ابتداء هذا الحديث بالدعاء " سبحانك " من التنزيه والتقــديس كما هو الحال فى الحديث السابق غير أن السياق هنا فيه توجه بالخطاب أفهم هذا واضحًا من إضافة " سبحان " إلى الضمير الكاف مما يشير إلى استحضار لجــلال الذات مما يضفى على العبارة طمأنينة ودفئًا ثم يتبع هذا بالنداء الجامع لأســماء الله نداء التفخيم والتعظيم " اللهم " وألمح فى تغير نمط التسبيح تمهيدًا وتوطئــة لطلب خاص هو ما سيأتى من طلب المغفرة وهذا بليــغ فــى مكانــه حيــث إن التعريض بالحاجة أمام المخاطب أدعى لتحقيقها وتلبيتها ولاسيما بعد التقدمة لها ، ولم يقف التمهيد عند قوله ﷺ " اللهم " فذكر بعده " ربنا " وهو الاسم الدال على افتقار العبد واحتياجه وطمعه فى تحقيق دعائه ، وكما ذكرت آنفًا هذا الاسم يشير إلى العلاقة الخاصة والقوية بين العبد وبين ربه ، وأفهم من هذه العلاقة أنه مهما شرد عنه فليس له رجوع إلا إليه ، ومهما عصاه فهو طامع فى مغفرته وقبوله ، فهو نداء استعطاف وتحنن ، وفى إضافة اسم الرب إلى ضمير الجمع " نــا " مــا يؤكد على هذه العلاقة ويبرزها ، وفى ضمير الجمع وإيثاره على ضمير المفرد " ربى " مثلاً إشعار بأن هذه الربوبية عامة شاملة تسع الخلق جميعًا فمهما أوغلوا فى البعد فهو منهم قريب ، ومهما جدُّوا فى العصيان فهو وحده ولىّ الغفــران ، وقوله " بحمدك " ذكر العلماء أن هذه الواو قيل هى للعطف على محذوف دل عليه التسبيح فى " سبحانك " والمعنى : وبحمدك سبحتك ومعناه بتوفيقك لى وهــدايتك وفضلك علىّ سبحتك لا بحولى وقوتى " [١] .

---

(١) أفاده النووى . ينظر كتابه : المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٢ / ٢٣٢ وما بعدها ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، طبعة ثانية ١٣٩٢ هــ ، وينظر :

قال البدر العينى : " والواو فيه إما للحال وإما لعطف الجملة على الجملة سواء قلنا إضافة الحمد إلى الفاعل والمراد من الحمد لازمه مجازًا وهو ما يوجب الحمد من التوفيق والهداية أو إلى المفعول ويكون معناه وسبحت ملتبسًا بحمدى لك " (١) .

قال الشيخ أبو العباس القرطبى : " ويظهر لى وجه آخر وهو إبقاء معنى الحمد على أصله ... وتكون الباء باء السبب ويكون معناه بسبب أنك موصوف بصفات الكمال والجلال سبحك المسبحون وعظمك المعظمون ... " (٢) والله أعلم .

وقال ابن دقيق العيد ويكون المراد بالسبب ههنا التوفيق والإعانة على التسبيح واعتقاد معناه وهذا كما روى عن عائشة فى الصحيح"بحمد الله لا بحمدك" (٣) أى وقع هذا بسبب حمد الله أى بفضله وإحسانه وعطائه فإن الفضل والإحسان سبب للحمد فيعبر عنهما بالحمد " (٤) ، ويحتمل أن تكون الباء متعلقة بمحذوف متقدم والتقدير وأثنى عليه بحمده فيكون " سبحانك اللهم " جملة مستقلة و " بحمدك " جملة أخرى " (٥) ، ثم يجدد الدعاء والضراعة مرة أخرى تمهيدًا لطلب المغفرة ، قال ﷺ : اللهم اغفر لى أى يا الله اغفر لى وإنما قال ذلك وإن كان غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر لبيان الافتقار إلى الله والإذعان له وإظهار العبودية والشكر وطلب الدوام ، أو الاستغفار عن ترك الأولى أو التقصير فى بلوغ حق عبادته مع أن نفس الدعاء هو عبادة وهذا من رسول الله ﷺ عمل بما

عون المعبود ٢ / ٢٢٧ ، وفتح البارى لابن حجر ، تحقيق / ابن باز ، ومحب الدين الخطيب ١٣ / ٥٤١ ، طبعة دار الفكر .

(١) ينظر : عمدة القارى ٩ / ٢٧٢ .

(٢) ينظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبى العباس القرطبى ٢ / ١٥٠ .

(٣) ينظر : مسند أحمد ٦ / ٣٦٧ ، طبعة مؤسسة قرطبة ، القاهرة ، والمعجم الكبير للطبرانى ٢٣ / ١٢١ ، وصحيح ابن حبان ١٦ / ٢١ .

(٤) ينظر : إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد ١ / ٣١٤ ، وينظر : عون المعبود ٢ / ٢٢٧ ، ونيل الأوطار ٢ / ٢٧٤ .

(٥) هذا الكلام مفاد من فتح البارى ١٣ / ٥٤١ ، طبعة دار المعرفة ، بيروت ١٣٧٩ هـ .

أمر به فى قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ [١] على أحسن الوجوه ، قال البدر العينى : " فإن قلت إتيانه بهذا الدعاء فى الركوع والسجود ما حكمته ؟ قلت أما كونه فى حال الصلاة فلأنها أفضل من غيرها ، وأما فى تلك الحالين (الركوع والسجود) فلما فيهما من زيادة خشوع وتواضع ليست فى غيرهما " [٢].

علمنا من هذا الأدب العالى فى الدعاء أن التسبيح تعظيم وتنزيه فإذا اقترن به ذكر لصفات الكمال والجمال أو ذكر الأفعال المقدسة الدالة على الكمال أو ذكر لهما معًا للصفات والأفعال فإن ذلك الاقتران يفيد ثلاثة أمور : الأول تأكيد معنى التعظيم المتضمن فى التسبيح مع ذكر بيانه وتفصيله فيذل المسلم غاية الذل لما ذكر من العظمة ، والأمر الثانى : ذكر المحاسن والمحامد التى يستحق بها سبحانه أن يحب بغاية الحب فبذلك يجتمع غاية الحب بغاية الذل وهما أصل العبادة ، والحمد كلمة جامعة للمحامد والمحاسن والكمالات والأفعال ، والأمر الثالث : أن الحمد إثبات الكمالات والتسبيح يتضمن التنزيه وهو نفى ما يناقض تلك الكمالات وذلك هو الثناء الذى يحبه الله عز وجل ، فكأن المسبح يقول : أسبح الله بلسانى وقلبى ناظر إلى محامده سابح فيها تذكرًا وتفكرًا منزه لها عما يناقضها فهو تسبيح ملبس بحمد كما قال الكرمانى وغيره : " ليعلم ثبوت الكمال له نفيًا وإثباتًا " [٣] ويلاحظ فى هذا الدعاء أنه ﷺ قدم التسبيح ملتبسًا بالحمد على الطلب وإنزال الحاجة لأن الاعتناء بشأن التنزيه أولى ولاسيما والكلام بعده رجاء ودعاء حتى يكون بمثابة التمهيد والتوطئة تذللاً واستعطافًا .

الدعاء الثالث :

من حديث على – رضى الله عنه – وفيه أن النبى ﷺ إذا ركع قال : " اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعى وبصرى ومخِّى وعظمى وعصبى ... " [٤] .

---

(١) سورة النصر : من الآية ٣ .

(٢) ينظر : عمدة القارى ٩ / ٢٧٢ .

(٣) ينظر : عمدة القارى ٢٣ / ١٦٢ .

(٤) ينظر : صحيح مسلم ، باب الدعاء فى الصلاة ٢ / ١٨٥ ، حديث رقم ١٨٤٨ ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، وسنن الدارقطنى ، تحقيق/ السيد عبد الله هاشم يمانى المدنى ، باب

هذا دعاء آخر صحيح ورد عن النبى ﷺ ينص على الإذعان والإعلان لله تعالى بأن كل حركة يتحركها العبد هى بإذن الله وينبغى أن لا تصرف لغيره ولا أن يتعبد بها لسواه ، والدعاء يتضمن الإقرار بالركوع والإيمان والإسلام وكذلك الخشوع لكل جارحة من جوارحه هى من نعم الله ولهذا فهى فى خشوع له أبدًا وفى هذا الإقرار منتهى العبودية والنداء المفخم " اللهم " الذى لا يكاد دعاء يتوجه به العبد إلى خالقه يسأله فيه أمرًا من أمور الدنيا والآخرة إلا صدره به لأن العبد يعلم أن حاجاته لا سبيل إلى تحقيقها إلا باللجوء إلى الله والطلب منه وحده ، وقد وقع هذا النداء موقعه وكان من المناسبة بحيث لا يصلح فيه غيره ولا يؤدى سواه مؤداه لما تقرر من أنه جماع الدعاء بكل أسماء الله الحسنى التى جُمعت فى هذا الاسم العظيم ، والركوع : الانحناء والطمأنينة والخضوع ، قال ابن فارس : الراء والكاف والعين أصل واحد يدل على انحناء فى الإنسان وغيره ، يقال : ركع الرجل إذا انحنى وقال الزمخشرى : ركع إلى الله أى اطمأن إليه خاصة وكل شىء يخفض رأسه فهو راكع " [١] وإذا ما نظرنا فى سياق هذا الدعاء وإلى روعة بيانه وجدنا أول شىء تقديم الجار " لك " وفى ذلك إشارة إلى التخصيص وأن هذا الفعل لله وحده فالركوع مقصور على الله وحده دون سواه قصر صفة على موصوف والمعنى أن هذا الانحناء الذى يفعله العبد هو لله وحده لا يشاركه فيه غيره وفى هذا إعلان للتضرع والتذلل لله كذلك فى التوجه بالخطاب " لك " ما يشير إلى استحضار العبد لجلال الله وعظمته وهذا يشعر بصدق هذا التضرع لأنه كان يشهد الله على هذا القول مُقرًّا به أمامه وبين يديه ، وهذا الإقرار الملازم للفعل صاحبه يعلم لله حقه وأنه المستحق للركوع دون سواه .

دعاء الاستفتاح بعد التكبير ١/ ٢٩٦ حديث رقم ١، طبعة دار المعرفة ، بيروت ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م ، والسن الكبرى للبيهقى ٢/ ٣٢ ، حديث رق ٢٤٣٧ ، طبعة مجلس دائرة المعارف النظامية فى الهند ، طبعة أولى ١٣٤٤ هـ .

(١) ينظر فى ذلك : كتاب العين للخليل ١ / ٢٠٠ ، واللسان ٨ / ١٣٣ ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢ / ٤٣٤ ، وأساس البلاغة للزمخشرى ١ / ٣٥٧ ، والصحاح للجوهرى ٤ / ٣٥٧ .

وقوله : وبك آمنت : الإيمان بالله هو التصديق به واليقين بـــه ، وفـــى تقديم الجار والمجرور " بك " إشارة إلى الاختصاص كالذى سبق فـــى تخصـــيص الركوع وقصره على الله وحده ، وفى هذا اعتراف آخر بأن الإيمان لا ينبغـــى أن يكون لغير الله ، وهو الخالق الواجد المتفضل ، وكذلك فى التوجه بالخطاب " بك " إشهاد على هذا الاعتراف وإقرار صريح وصاحبه محمد ﷺ فى كامل وعيه وفـــى تمام حضوره " فإن قيل يرد على الحصر المستفاد من تقـــديم المعمـــول الإيمـــان بغيره ممن يجب الإيمان بهم كالأنبياء والملائكة والكتب ، قلت يجاب بأن الإيمـــان بما أوجبه إيمان به أو المراد الحصر الإضافى بالنسبة لمن عبد " [١] .

وفى عطف هذه الأخبار من قصر الركوع على الله وحده وكذلك الإيمـــان عطف للخبر على نظيره وهو ما يسميه البلاغيون بالوصل للتوسط بين الكمـــالين والمناسبة ظاهرة بين الركوع والإيمان وفى تقديم الركوع على الإيمان ، والإيمان أصل وسابق مزيد اهتمام ولأن الدعاء واقع فى الركوع فناسب البدء به مراعـــاة للحال التى عليها الداعى ، والإيمان كما هو عند أهل الســـنة " اعتقـــاد بالجنـــان وإعلان باللسان وعمل بالجوارح والأركان " [٢] ولهذا يكون الركوع داخلاً فيـــه ، وذكره حينئذ من باب ذكر العام بعد الخاص اهتمامًا بهذا الخاص وتنويهًا بشأنه ، والإسلام هو الاستسلام الظاهر للأوامر والنواهى وفى ذكره بعد الإيمان تنبيه على

---

(١) ينظر : تحفة الحبيب على شرح الخطيب للبجيرمى ٢ / ٢٢٨ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، طبعة أولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

(٢) ينظر فى ذلك : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، لهبة الله اللالكائى ، تحقيق / أحمد سعد حمدان ١ / ١٨١ ، طبعة دار طيبة ، الرياض ١٤٠٢ هـ ، ومصباح الظلام للشيخ / عبد اللطيف آل الشيخ ، دراسة وتحقيق الشيخ / عبد العزيز بن عبد الله الزير آل أحمد ٢ / ٨ ، طبعة وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، طبعة أولى ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م ، وطبقات الشافعية الكبرى ، للإمام / تاج الدين السبكى ، تحقيق / محمود محمد الطناحى وعبد الفتاح محمد الحلو ١ / ١٠٢ ، طبعة هجر للطباعة والنشر ، طبعة ثانية ١٤١٢ هـ .

أهميته ، وفى الكلام ترتيب من الأعلى إلى الأدنى بين الإيمان والإسلام لأن الإيمان أخص من الإسلام والمؤمنون بالنسبة إلى المسلمين قلة ، وهذه هى الخصوصية ، وفى العبارة قصر للإسلام من الموحد ﷺ على الله وحده دون غيره ، وفى عطف الإسلام بعد الركوع والإيمان تقرير وتوكيد لحقائق الدين وإشارة إلى أن الدين كل مجتمع لا يتقرب إلى الله بأبعاضه (نؤمن ببعض ونكفر ببعض) والذى ينبغى على العبد أن لا يقوم بشعيرة من الدين ويترك الأخرى وشأنها ، فكل شعيرة هى مقدمة للأخرى تتطلبها وتستلزمها ولا انفصام بينهما فالراكع لله ينبغى أن يكون مؤمنًا مصدقًا بالله مسلمًا له كل قياده لا ينازع الله فى إيمانه ولا فى إسلامه له غيره ، وقد وصل التعبير النبوى بين هذه الجمل لأنها أخبار وبينها من المناسبة ما يقتضى الوصل وهو ما يسمى بالتوسط بين الكمالين ، وكأن فى العبارة ما يشير إلى الترابط بين هذه الأشياء ، فالركوع والإيمان والإسلام كل منها مترتب على الآخر مرتبط به لا ينفك عنه ، ولهذا كان الربط بالواو بينها واقعًا موقعه من المناسبة ، وفى هذه من البلاغة ما لا مزيد عليه ، قال أهل العلم : قوله ﷺ : " اللهم لك ركعت وبك آمنت ... فى تقديم الجار إشارة إلى التخصيص ، ولك أسلمت أى لك ذللت وانقدت أو لك أخلصت وجهى أو لك خذلت نفسى وتركت أهواءها " (١) .

وقوله ﷺ : خشع لك سمعى .. قال أهل اللغة فى الخشوع " خشع يخشع خشوعًا واختشع وتخشع: رمى ببصره نحو الأرض وغضه وخفض صوته .. وخشع بصره : انكسر ، والخاشع : الساكن ، وقال ابن فارس الخاء والشين والعين أصل واحد يدل على التطامن يقال خشع إذا تطامن وطأطأ رأسه ، وقال الزمخشرى خشع له وتخشع : ذل وتطامن ، ويرى صاحب العين أن الخشوع قريب المعنى من الخضوع إلا أن الخضوع فى البدن .. والخشوع فى البدن

---

(١) ينظر فى ذلك : تحفة الأحوذى ٩ / ٢٦٥ ، وشرح سنن أبى داود للعينى ٣ / ٣٥٨ ، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للخطيب التبريزى ٣/ ٣٣٩ ، وأصل صفة صلاة النبى ﷺ للشيخ الألبانى ٢/ ٦٦٤ .

والصوت والبصر ، وقالوا: الخاشع المستكين ، والخاشع : الراكع " [١] ، ومعنى خشع لك سمعى أى خضع وتواضع أو سكن لك سمعى فلا يسمع إلا منك ، وبصرى فلا ينظر إلا بك وإليك ، ومعنى ذكر هذه الأشياء متوالية أى أخذ كل عضو من هذه الأعضاء حظه من الخضوع والتذلل أى سكنت وافتقرت ، وقوله : ومخِّى .. قال ابن رسلان : " المراد به هنا : الدماغ وأصله الودك الذى فى العظم وخالص كل شىء مخه" [٢] ، والعصب: طنب المفاصل وهو ألطف من العظم [٣] ، والمراد بخشوع هذه الأشياء : الانقياد والطاعة فيكون هذا من قبيل ذكر اللازم وإرادة الملزوم ، وتخصيص السمع والبصر من بين الحواس لأنهما أعظم الحواس وأكثرها فعلاً وأقلهما عملاً وأمسهما حاجة ، ولأن أكثر الآفات للمصلى بهما ، فإذا خشعت قلَّت الوساوس الشيطانية " [٤] أو لأن تحصيل العلم النقلى والعقلى بهما [٥] وأما تخصيص المخ والعظم والعصب فلأن ما فى أقصى قعر البدن المخ ثم العظم ثم العصب لأن المخ يمسكه العظم ، والعظم يمسكه العصب وسائر أجزاء البدن مركبة عليها ، فهذه عمد بنية الحيوان وأطنابها ، وأيضًا العصب خزانة الأرواح النفسانية واللحم والشحم غادٍ ورائح فإذا حصل الانقياد والطاعة من هذه فمن الذى يتركب عليها بالطريق الأولى ، فإن قلت : ما معنى انقياد هذه الأشياء ، قلت : أما انقياد السمع فالمراد به قبول سماع الحق والإعراض عن سماع الباطل ، وأما انقياد المخ والعظم والعصب فالمراد به انقياد باطنه كانقياد ظاهره ، لأن الباطن إذا لم يوافق الظاهر لا يكون انقياد الظاهر مفيدًا معتبرًا ، وانقياد الباطن عبارة عن تصفيته عن دنس الشرك والنفاق

---

(١) ينظر فى ذلك : كتاب العين ١ / ١١٢ ، واللسان ٨ / ٧١ ، ومعجم مقاييس اللغة ٢ / ١٨٢ ، وأساس البلاغة ١ / ٢٢٣ ، والنهاية فى غريب الحديث والأثر ٢ / ٩١ .

(٢) ينظر : تحفة الأحوذى ٩ / ٢٦٥ ، ومشكاة المصابيح مع شرحه مرقاة المفاتيح للتبريزى ٣ / ١٨٩ .

(٣) نيل الأوطار للشوكانى ٢ / ٢٠٨ .

(٤) ينظر : تحفة الأحوذى ٩ / ٢٦٥ ، وشرح أبى داود للعينى ٣ / ٣٦٣ .

(٥) ينظر : مرقاة المصابيح ٣ / ٣٣٩ .

وتزيينه بالإخلاص والعلم والحكمة ، وترك الغل والغش والحقد والحسد والظنون والأوهام الفاسدة ونحو ذلك من الأشياء التى تخبث الباطن ، وانقياد الظاهر عبارة عن استعمال الجوارح بالعبادات كل جارحة بما يخصها من العبادة التى وصفت لها " [١] ، وخشوع هذه الأشياء دليل على خشوع القلب لأنه هو الأساس فإذا خشع القلب خشعت الجوارح وظهر عليها السكون والطمأنينة والوقار والتواضع ، وإذا فسد خشوع القلب بالغفلة والوساوس فسدت عبودية الأعضاء وذهب خشوعها ، والخشوع فى الدين أمر عظيم شأنه أثنى الله تعالى على المتصفين به فقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [٢] ، وقد حرص الرسول الكريم على الخشوع فى الصلاة ليحصل العبد مرضاة ربه لأنه – أى الخشوع – سريع فقده ، فقد ورد فى حديث أبى الدرداء – رضى الله عنه – أن رسول اللهﷺ قال:"أول شىء يرفع فى هذه الأمة الخشوع حتى لا ترى فيها خاشعًا"[٣]، وعجيب ما تلحظه معى فى هذا الأسلوب الرائع من أمىّ قد علَّم المتعلمين ، ففى قولهﷺ : خشع لك سمعى أخَّر الظرف " لك " هنا وقدمه هناك فى " لك ركعت " واسأل معى عن سر هذه المخالفة وما السبب فى تأخيره هنا لأننا قد عرفنا سر تقديمه هناك " ويمكن أن يقال لما كانت العبادة من المشركين لغير الله بجميع ذاتهم قدم الظرف – هناك – لقصد الرد عليهم ؛ إذ تقديم المعمول يفيد الحصر ، ولما لم تحصل العبادة منهم بالخشوع بالسمع ونحوه لغير الله لم يحتج

---

(١) شرح سنن أبى داود للعينى ٣ / ٣٦٣ .

(٢) سورة المؤمنون : الآيتان ١ ، ٢ .

(٣) ينظر : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى ، تحرير الحافظين الجليلين العراقى وابن حجر ٢ / ١٦٢ ، طبعة دار الفكر ، بيروت ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، والفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير للسيوطى ، تحقيق / يوسف النبهانى ١ / ٤٣٢ ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، طبعة أولى ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م ، ومصابيح التنوير على صحيح الجامع الصغير للألبانى ١ / ٤٩٧ ، وصحيح الترغيب والترهيب للألبانى ١ / ١٣٠ ، طبعة مكتبة المعارف ، الرياض ، طبعة خامسة .

إل تقديم بل بقى على أصل تأخير المعمول " [١] وينبغى أن يعلم أن الخشوع فى الصلاة هو روحها ولبها ولا يحصل ذلك إلا لمن فرغ قلبه لها واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها والصلاة التى لا خشوع فيها ولا حضور قلب وإن كانت مجزئة مُثابًا عليها إلا أن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها لما ورد عن عمار بن ياسر – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها " [٢] وفى التعبير النبوى الشريف : خشع لك سمعى .. من المبالغة ما لا مزيد لأن الخاشع هو الشخص بجملته لا أبعاضه ، فإسناد الخشوع للسمع والبصر ونحوهما إشارة إلى أن الخشوع يشمل جميع أعضائه وأبعاضه ، والحاصل أن إضافة الخشوع الذى هو حضور القلب وسكون الجوارح لهذه الحواس لأنها آلته فهى إضافة مجازية والمتصف بها فى الحقيقة هو الهيكل الإنسانى جميعه لكنها تابعة للقلب ، والمجاز هنا مرسل علاقته الجزئية حيث عبر بالجزء وأراد الكل ، والأسلوب كله كناية عن كمال الخشوع والخضوع أى قد بلغ غايته حتى كأنه ظهر أثره فى هذه الأعضاء وصارت خاشعة لربها ، وإن قلت ما وجه ارتباط قوله خشع لك سمعى بما قبله ، وما وجه ترك العاطف بين الجملتين قلت كأن هذا وقع بيانًا لقوله " ولك أسلمت " ولذلك ترك العاطف لأن معنى " لك أسلمت " : انقدت وأطعت ، ومعنى خشع سمعى إلى آخره : الانقياد والإطاعة فكأنه عليه السلام يريك نوعى الانقياد والإطاعة بقوله : خشع سمعى إلى آخره بعد الإجمال ، فقوله : خشع سمعى وبصرى بيان الانقياد الظاهر ، وقوله مخى وعظمى وعصبى بيان الانقياد الباطن ، والرسول الكريم هو أولى الناس عملاً بأوامر ربه عز وجل ، ألم يقل الله تعالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [٣] ، والمراد به أن يكون العبد ساكنًا مع طول القيام فى الصلاة لا يلتفت ولا يرفع بصره ولا

---

(١) ينظر بتصرف : تحفة الحبيب على شرح الخطيب للبجيرمى ٢ / ٢٢٨ .

(٢) سنن أبى داود ١ / ٢٩٣ ، والحديث صححه الألبانى .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٣٨ .

يتحرك ولا ينشغل بشيء من جوارحه أو ببصره عما هو بصدده لأن الخشوع يتضمن السكينة والتواضع جميعًا ، قال الحافظ ابن رجب : " وفى هذا إشارة إلى أن خشوعه فى ركوعه قد حصل لجميع جوارحه ومن أعظمها القلب الذى هو ملك الجوارح والأعضاء فإذا خشع خشعت الجوارح والأعضاء كلها تبعًا له ولخشوعه .. ومن تمام خشوع العبد لله عز وجل وتواضعه فى ركوعه وسجوده أنه إذا ذل لربه بالركوع والسجود وصف ربه حينئذ بصفات العز والكبرياء والعظمة والعلو فكأنه يقول الذل والتواضع وصفى، والعلو والعظمة والكبرياء وصفك " [١] .

إن هذه المنزلة الجليلة التى يصل إليها القلب هى سر حياته وأساس إقباله على ربه سبحانه وتعالى ، فالافتقار حاد يحدو العبد إلى ملازمة التقوى ومداومة الطاعة ، " وفى هذه المناجاة ترى الألوهية الكاملة والعبودية الكاملة بين يدى بديع السموات والأرض يجثو عابد ملهم فيهمس فى ركوعه وسجوده بكلمات تصدر ما ينبغى أن ينطق به كل فم تحية لذى الأسماء الحسنى ، إن المسلم الأول – وهذا ترتيب محمد بين النبيين والصديقين والشهداء والصالحين له فن فى الذكر والشكر والإنابة والدعاء لم يحفظ مثله لبشر " [٢] والله أعلم .

---

(١) ينظر : الخشوع فى الصلاة لابن رجب ص ٤١ – ٤٣ .

(٢) فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء ، محمد الغزالى ١ / ٨ ، طبعة نهضة مصر ، طبعة أولى .

المبحث الثالث

ما يقال من الدعاء بعد الرفع من الركوع

عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال : كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال : " ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما شئت من شىء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد " [١] .

فى هذا الحديث الشريف يتوجه النبى ﷺ عقب رفعه من ركوعه بالطمأنة والبشارة يزفها إلى كل مصلٍّ يقف بين يدى ربه يخشع ويضرع يسبح الله تعالى فى ركوعه ويحمده ، ويقر ويعترف بالتقصير والتفريط ويعلن الإنابة واللجوء إلى الله تعالى وهذه البشارة ضمان باستجابة دعاء الداعين وحمد الحامدين " سمع الله لمن حمده " وكأن انفراد الإمام بها – عند من يرى ذلك من العلماء – يؤكد على هذا المعنى وكأنه أمامهم يقدمهم بالخير والبشر يدعو ويؤمنون ويكبر ويتابعون سمع الله لمن حمده ، والمعنى " أى تقبل الله منه حمده وأجابه ، يقال : اسمع دعائى أى أجب لأن غرض السائل الإجابة فوضع السمع موضع الإجابة ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ [٢] أى اسمعوا منى سمع الطاعة والقبول ومنه الحديث : " أعوذ بك من دعاء لا يسمع " [٣] أى لا يجاب [٤] قال الإمام النووى : " سمع هنا بمعنى أجاب ومعناه أن من حمِد الله تعالى متعرضًا لثوابه استجاب الله تعالى له وأعطاه ما تعرض له فإنا نقول ربنا لك الحمد

---

(١) ينظر : صحيح مسلم ، باب ما يقول إذا رفع من الركوع ٢ / ٤٧ ، حديث رقم ١٠٩٩ ، وسنن أبى داود ٣١٥/١ ، حديث رقم ٨٤٧، وصحيح ابن حبان ، باب صفة الصلاة ٢٣١/٥، حديث رقم١٩٠٥ .

(٢) سورة يس : من الآية ٢٥ .

(٣) ينظر : المعجم الكبير للطبرانى ٢ / ٣٠٥ ، حديث رقم ٢٢٧١ ، والمصنف فى الأحاديث والآثار لابن أبى شيبة ، تحقيق / كمال يوسف الحوت ٦ / ١٩ ، حديث رقم ٢٩١٤٣ ، طبعة أولى ١٤٠٩ هـ .

(٤) ينظر : شرح السنة للبغوى ٤ / ١٩٣ .

لتحصيل ذلك " [١] ودليل كون السماع هنا بمعنى الاستجابة ثبوت اللام فى قوله : لمن حمده فهى لتضمين معنى الاستجابة ، وإذا تأملنا صياغة العبارة من الناحية البلاغية وجدناها جملة خبرية لفظًا إنشائية معنى ، وفى إيثار عرضها فى صورة الخبر ما يدل على عظيم التعلق بمضمونها وشديد الرغبة فى تحقيق هذه الاستجابة ، وكأن الداعى توجه إلى الله تعالى بالدعاء فاطلع الله على صدق دعائه وعلى حسن رجائه فاستجاب الله له وأعطاه نواله فَسُرَّ العبد به وها هو يخبر عنه ، وفى هذا الأسلوب من الوجازة والاختصار ما يدل على البلاغة العالية التى تتضمن فى مطاويها جملاً متعددة ، كل جملة منها تعبر عن معنى التضرع والتوجه بالدعاء إلى الله تعالى ، وتعكس شدة الرغبة وغاية الحرص على قبول الدعاء وتلبية الرجاء .

وفى إيثار التعبير بالماضى – سمع – ما يفيد التحقق والتوكيد ، وهذا مبعث الأمل ، ثم فى إسناد هذا الفعل إلى لفظ الجلالة " سمع الله " الاسم الجامع لكل الكمالات ما يقطع بحصول السماع والاستجابة كيف لا ؟ وقد سمع الله هذا الدعاء من عليائه وأجابه من فوق سمائه وأحس فى هذا الإسناد معنى التشريف والتكريم لهذا الداعى ، فالله جل جلاله قد سمع لك دعاءك وأجاب نداءك ، وفى إيثار التعبير بالاسم الموصول " لمن حمده " دون الاسم الظاهر " الحامد " مثلاً ما يشير إلى خصوصية فى هذا الموصول كأن التعبير بجملة الصلة " حمِده " وما فيها من تقرير وتحقيق هو الذى جعله يحظى بهذه الإجابة مباشرة ، كذلك يشير التعبير بالصلة إلى أن الاستجابة إنما تمنح لعبد جعل الله تعالى كل رجائه وتوجه إليه بخالص دعائه ، فالعبد قد وقع منه الحمد على الحقيقة فما له لا يستجاب له؟، وفى هذا إغراء بكثرة الحمد وترغيب فى الحرص على الإتيان به على الوجه اللائق الصحيح ؛ لأن الاستجابة إنما تتوقف على صدق الداعى وإخلاص الدعاء ، ولهذا شرع للمأمومين أن يحمدوا الله تعالى فور سماعهم هذه البشارة رغبة فى ثبوتها وطمعًا فى استدامتها ، وهكذا يعلمنا الرسول ﷺ : " فإذا قال سمع الله لمن

---

(١) المنهاج للنووى ٤ / ١٩٣ .

حمده فقولوا ربنا ولك الحمد " [١] إذا قال ... فقولوا من غير مهلة وعلى وجه السرعة ، وهذا ما يوحى به حرف السرعة " الفاء " ، وإذا كانت الرحمات تستنزل بمثل هذه الدعوات فعجيب أمر من لا يرددها ويواظب عليها وقد ضمن الرسول الكريم قبولها واستجابتها ، أما قوله : ربنا لك الحمد : فهذا نداء يقطر ضراعة وفيه إقرار بثبوت الحمد لله تعالى على كل حال ، فالحمد ثابت لك يا رب وإن لم يحمدك أحد ، وفى التعبير بلفظ الرب - وهو كما تقرر - المربى والمصلح والخالق تعريض بشدة افتقار العبد إلى سيده ومولاه ، وفى هذا من المناسبة فى هذا المقام مقام العوز والاحتياج ولاسيما والعبد الصادق فى الدعاء يريد المزيد من الاستجابة وقضاء الحاجات ، وفى ضمير الجمع " نا " فى " ربنا " إقرار بمربوبية جميع الخلائق لله وحده ، فليس الداعى وحده هو المربوب بل كل مخلوق لله فهو مربوب ، وفى ضمير الجمع أيضًا ما يشير إلى عظيم الرغبة فى تلبية النداء واستجابة الدعاء ، فالجميع يطلب ويقر فى صوت واحد وبلسان واحد نحو رب واحد ، والجميع مقر بثبوت الحمد لله وقد وردت روايات بثبوت الواو فى قوله : ربنا ولك الحمد " [٢] ورواية ثبوت الواو أوجه عند بعض العلماء ، والسبب فى ذلك أن رواية الواو فيها زيادة معنى كأنك تقول أنت ربنا ثم تقول ولك الحمد " أو ربنا استجب لنا ولك الحمد على هدايتك إيانا ولكونه أكثر حروفًا ويتضمن الحمد مقدرًا ومظهرًا فإن التقدير ربنا حمدناك ولك الحمد لأن الواو للعطف ولما لم يكن فى الظاهر ما يعطف عليه دل على أن فى الكلام مقدرًا " .[٣]

---

(١) ينظر الحديث بتمامه فى : صحيح البخارى ، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به ١ / ٢٤٤ ، حديث رقم ٦٥٧ ، تحقيق د / مصطفى ديب البغا ، طبعة دار ابن كثير اليمامة ، بيروت ، طبعة ثالثة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

(٢) ينظر : صحيح البخارى ، باب ما يقول الإمام إذا رفع رأسه من الركوع ٢ / ٢٠٥ ، حديث رقم ٧٩٥ ، وصحيح مسلم ٢ / ٧ ، حديث رقم ٨٩٤ ، طبعة دار الجيل ، بيروت .

(٣) ينظر : شرح السنة للبغوى ٣ / ١١٤ ، ونهاية الزين فى إيثار المبتدئين لمحمد بن عمر الجاوى ١ / ٦٦ ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، وكشاف القناع عن متن الإقناع لمنصور بن يونس البهوتى ، تحقيق / هلال مصيلحى مصطفى ١ / ٣٤٩ ، طبعة دار

وقوله ﷺ ملء السموات والأرض : ملء هو بنصب الهمز ورفعها والنصب أشهر وهو الذى اختاره ابن خالويه ورجحه وأطنب فى الاستدلال له ، وجواز الرفع على أنه مرجوح ... قال العلماء معناه حمدًا لو كان أجسامًا لملأ السموات والأرض .. " [١] ، وتوجيه النصب على أنه صفة لموصوف محذوف وهذا الموصوف منصوب على المصدر والعامل فيه المصدر قبله ، والتقدير : حمدًا ملء السموات ، والحمد معنى من المعانى ، والأجرام إنما تملأ بالأجرام والأجسام لا يمتنع أن يكون هذا المعنى بحيث لو كان جسمًا لملأ ما بين السموات والأرض ولا يمنع أن يكون له حقيقة ولو لم يدركها البشر ، قال الخطابى : " هو تمثيل وتقريب ، والمراد تكثير العدد حتى لو قدر ذلك أجسامًا ملأ ذلك كله قال غيره المراد بذلك التعظيم كما يقال هذه الكلمات تملأ طباق الأرض ، وقيل المراد بذلك أجرها وثوابها " [٢] وهذا التعبير فيه إشارة إلى الاعتراف بالعجز عن أداء حق الحمد بعد استفراغ المجهود فيه ، فماذا عسى الحامدون أن يبلغوا بحمدهم ، وأن يوفوا به لله حقًّا وما ذلك منه ﷺ إلا إمعانًا ومبالغة فى حمد الله وذلك لما يعلمه من عظيم حق الله تعالى وأن الحق لا يُوفَّى من قبل أحد ولو أنه استفرغ عمره كله فى الحمد فهيهات أن يكافئ الله تعالى بنعمة واحدة ، وهذا التعبير فيه تعليم منه ﷺ لأمته بطريق غير مباشر ، فإذا كان أعرف الخلق بحق ربه يظهر عجزه أمام حمد الله وأنه لا يستطيع توفيته به فأنَّى لغيره من المخلوقات ؟

ثم تأكيدًا لهذا الاعتراف بالعجز وتعريضًا بحال التقصير فى هذه النعم يردف قوله : وملء ما شئت من شىء بعد " كأنه أراد بذلك أن يوغل فى الحمد وأن يبلغ به منتهاه على حد علمه ، فإذا امتلأت السموات والأرض حمدًا لله كان ذلك فى تقديره ضئيلاً بجانب ما يستحقه ربه ولهذا أتى بهذه الجملة : وملء ما

الفكر ، بيروت ١٤٠٢ هـ .

(١) ينظر : المنهاج للنووى ٤ / ١٩٣ .

(٢) ينظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبى العباس القرطبى ٢ / ١٤٦ ، وإكمال المعلم للقاضى عياض ٢ / ٢١٩ .

شئت من شىء بعد ، يعنى أن أى شىء تشاؤه فإنا نحمدك بملئه ، قال أهل العلم : " بعدُ : ظرف قطع عن الإضافة مع إرادة المضاف وهو السموات والأرض فبنى على الضم لأنه أشبه حرف الغاية الذى هو " منذ " والمراد بقوله من شىء العرش والكرسى ونحوهما مما فى مقدور الله تعالى " [١] .

ولا يخفى دلالة " مِنْ " فى قوله : من شىء على الاستغراق ، وفى هذا التعبير إشارة إلى أن حمد الله أعز من أن يعتوره الحسبان أو يكتنفه الزمان والمكان فأحال الأمر فيه على المشيئة وليس وراء ذلك للحمد منتهى ، ولم ينته أحد من خلق الله فى الحمد مبلغه ومنتهاه ، وبهذه الرتبة استحق نبينا ﷺ أن يسمى أحمد ؛ لأنه كان أحمد ممن سواه ممن سواه ، قال العلامة الشوكانى : " وملء ما شئت من شىء بعد أى مما تعلم ولا نعلم ، فالمطلوب حمد يملأ الظروف المعلومة وغير المعلومة للبشر " [٢] والذى يستحق الحمد بهذه الكيفية وبما هو أعظم منها حقيق بأن ينفرد بالثناء وأن يختص به ، وليس لأحد من المخلوقات استحقاق لهذا مثله أو دونه ولهذا أفرغ النبى ﷺ منتهى حمده لله تعالى بأن ناداه بنداء الأهلية الذى يدل على كمال الاستحقاق " أهل الثناء والمجد " ، قال أهل العلم : " قوله أهل : منصوب على النداء هذا هو المشهور ، وجوَّز بعضهم رفعه على تقدير : أنت أهل الثناء ، والمختار النصب ، والثناء : الوصف الجميل والمدح ، والمجد والعظمة ، ونهاية الشرف هذا هو المشهور فى الرواية فى مسلم وغيره ، قال القاضى عياض : " ووقع فى رواية ابن ماهان : أهل الثناء والحمد وله وجه ولكن الصحيح المشهور الأول " [٣] ، قال شيخ الإسلام : " والثناء تكرير المحامد وتثبيتها " [٤] ، وأصل الثناء ما يذكر عن محامد الناس فيثنى حالاً فحالاً وأصل

---

(١) ينظر : المفهم لأبى العباس القرطبى ٢ / ١٤٦ ، ونيل الأوطار ٢ / ٢٧٩ ، ونهاية الزين للجاوى ١ / ٦٦ .

(٢) نيل الأوطار للشوكانى ٢ / ٢٧٩ .

(٣) ينظر : المنهاج للنووى ٤ / ١٩٤ ، وشرح أبى داود للعينى ٤ / ٣٧ ، والمفهم ٢ / ١٤٦ ، وإكمال المعلم ٢ / ٢١٩ .

(٤) ينظر : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، تحقيق / محمد رشاد سالم ٢ / ١٨٨ ، طبعة دار الكنوز الأدبية ، الرياض ١٣٩١ هـ .

الثنى العطف ومنه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر " [١] ، وقد فرق أبو هلال بين المدح والثناء وقال بأن الثناء مدح مكرر " [٢] .

وفى إيثار هذا اللفظ " أهل " لما أنه يدل على كمال الاستحقاق وأن صاحبه جدير بهذا الوصف وهذا فيه من الدقة فى اختيار اللفظ المناسب ، ولا يفوتنى أن أشير إلى دلالة وجه الرفع أهل الثناء والمجد على أنه خبر والمبتدأ محذوف تقديره أنت أهل الثناء وفيه من التقرير والتحقيق بأن هذا الأمر ثابت وحقيق وهذا من عطاءات الجملة الاسمية وما تفيده من الثبوت والدوام ، أما على وجه النصب فهو نداء تمجيد وتقدير ومدح وفيه من الاستجداء وطلب النوال ما فيه لأن التعرض فى النداء بوصف الأهلية يشير إلى ذلك فإذا ما كان المدعو أهلاً لهذا المدح والثناء والشرف أعطى من غير سؤال وبلا حدود فما باله لو سئل ؟!

قال أهل اللغة : " الحق هو الثابت الذى لا يسوغ إنكاره يقال : حق الأمر إذا ثبت ووجب وحقت كلمة ربك " [٣] ومن فى الخلق أعلم بحق الله تعالى ومن منهم أحرص على القيام به من محمد ﷺ ولهذا تراه يقر ويعترف بأن أحق ما قاله العبد هو تحميده لربه واستفراغ جهده وطاقته فى الثناء على الله بما هو أهله ومدحه بكل أوصاف المدح ، قال ﷺ : " أحق ما قال العبد " ، وهذا اعتراف بأحقية هذا القول لا بل هو فى أعلى درجات الوجوب والإحقاق وهذا ما تشى به صيغة أفعل التفضيل " أحق " ومعناه أن الحمد لله من أوجب الواجبات وهو فى ذروة درجات الحق ، وهو الذى ذكرته من أن أوجب الحق وأولاه قولاً من العبد هو ربنا لك الحمد، هذا على اعتبار أن أحق ما قال العبد خبر مبتدأه : ربنا لك

---

(١) ينظر : التوقيف على مهمات التعاريف للمناوى ، تحقيق د / محمد رضوان الداية ١ / ٢٢٤ ، طبعة دار الفكر المعاصر ، ودار الفكر بيروت ، دمشق ، طبعة أولى ١٤١٠ هـ ، وكتاب الكليات لأبى البقاء الكفومى ١ / ٤٩٣ .

(٢) معجم الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ١ / ١٥٠ .

(٣) ينظر : الكشاف للزمخشرى ، تحقيق / عبد الرازق المهدى ١ / ١٤٦ ، طبعة إحياء التراث العربى ، بيروت ، وأساس البلاغة ١ / ١٨٧ - ١٨٩ ، ومفردات الراغب ١ / ٢٤٨ ، طبعة دار القلم ، دمشق ، والصحاح للجوهرى ٥ / ١٤٦ ، وتاج العروس ٢٥ / ١٧١ .

الحمد وهناك للعلماء رأى آخر هو الأولى بالاعتبار من هذا الوجه وهو أن يكون قوله : أحق ما قال العبد مبتدأ خبره قوله : اللهم لا مانع لما أعطيت ... إلى آخره ، قال أهل العلم : " وقوله أحق ما قال العبد أى أوجب وأثبت وأولى وهو مرفوع بالابتداء وخبره اللهم لا مانع لما أعطيت ... إلى آخره " [١] .

وعلى الوجه الأول يكون فيه بيان أن الحمد لله هو أحق ما قاله العبد ولهذا أوجب قوله فى كل صلاة وأن تفتتح به الفاتحة وأوجب قوله فى كل خطبة وفى كل أمر ذى بال ، وعلى الوجه الثانى يكون المعنى أحق ما قال العبد قوله لا مانع لما أعطيت .. إلى آخره ، قال صاحب المجموع : " والذى رجحه ابن الصلاح – وهو الثانى – هو الراجح الذى يحسن أن يقال إنه أحق ما قال العبد لما فيه من كمال التفويض إلى الله تعالى والاعتراف بكمال قدرته وعظمته وقهره وسلطانه وانفراده بالوحدانية وتدبير مخلوقاته " [٢] ، و " أل " فى العبد من قوله : أحق ما قال العبد : إما للجنس وإما للعهد والمراد الرسول ﷺ والأول أظهر لقوله : وكلنا لك عبد ، وهذه الجملة اعتراضية " [٣] وقعت بين المبتدأ والخبر ، وفائدة هذا الاعتراض التنبيه على أنه تعالى مالك لجميع العباد فإليه يرجع الأمر كله ، وكذلك الاهتمام به وارتباطه بالكلام السابق ، ولطيفة فى إيثار لفظ العبد بصيغة المفرد مع إرادة الجنس ولم يقل : عبيد مع عود الضمير على جمع لأن

---

(١) ينظر : المفهم ٢ / ١٤٦ ، وشرح أبى داود للعينى ٤ / ٣٧ ، والمنهاج للنووى ٤ / ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٢) ينظر : المجموع للنووى ٣ / ٤١٥ ، وشرح أبى داود للعينى ٤ / ٣٧ ، والمنهاج ٤ / ١٩٦ ، والمفهم ٢ / ١٤٦ .

(٣) الاعتراض " هو أن يؤتى فى أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة سوى ما ذكر فى تعريف التكميل " . ينظر فى ذلك : الإيضاح ١ / ٣١٣ ، ٣١٤ ، والإتقان ٢/ ٢٧٥ ، وشرح عقود الجمان ١/ ٢٤٩ ، طبعة الحلبى بمصر ، طبعة ثالثة ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٥م ، والخصائص لابن جنى ، تحقيق د / محمد على النجار ١ / ٣٣٦ ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة رابعة ١٩٩٩ م .

القصد أن يكون الخلق جميعًا بمنزلة عبد واحد وقلب واحد قال تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾ [١] ، ثم يتمم الكلام بقوله : اللهم لا مانع لما أعطيت .. ويستهله بهذا النداء المفخم الجامع لكل أسماء الله الحسنى والمعنى: لا مانع لما أعطيت أى أردت عطاءه فإن من أعطى شيئًا لا مانع له ، إذ الواقع لا يرتفع ولا معطى لمن منعه الله لأن قضاءه نافذ سبحانه وتعالى ، فما قدر عطاءه وجد وما قدر منعه لا يوجد فلا يستطيع أحد أن يغير شيئًا من ذلك قال تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [٢] ، وعطاء المولى سبحانه وعالى عظيم ، وقد جاء هنا عطاءً مطلقًا فقد حذف المفعول من " أعطيت " وهذا يفيد عموم العطاء ، وسواء كان العطاء ماديًّا محسوسًا من غنى وصحة وولد ومنصب أو كان عطاء معنويًّا من مكارم أخلاق وتوفيق للعبادة وعلم نافع وهذا سر حذف المفعول وهو إفادة العموم ليشمل كل هذه الأشياء ، وحذف المفعول تكثر لطائفه وتدق أسراره وكأن المزايا فيه أخلب وما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب كما يقول عبد القاهر [٣] .

وفى النفى " لا مانع " وما تفيده " لا " من نفى المستقبل خاصة وفى جعل اسمها " مانع " اسم فاعل يدل على الثبوت والدوام تأكيد لهذا المعنى العظيم وهو أن ما قدره الله تعالى ، وما منحه للعبد لا يستطيع مخلوق أن يمنعه على الدوام ، وكذلك فى قوله : ولا معطى لما منعت وفيه ما فى الجملة السابقة من تأكيد نفى المستقبل وكذلك من صور الجمال التعبير بالطباق [٤] بين معنيى المنع والعطاء

---

(١) سورة مريم : الآية ٩٣ .

(٢) سورة فاطر : الآية ٢ .

(٣) ينظر : دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ، تعليق الشيخ / محمود شاكر ص ١٥٣ ، طبعة دار المدنى بجدة ، طبعة ثالثة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .

(٤) وهو " الجمع بين المتضادين أى معنيين متقابلين فى الجملة " . ينظر : الإيضاح للقزوينى

والذى بدوره يبرز شمول وقيمة العطاء بمقارنتها بصورة انعدام المنع ونفيه عن كل أحد ، وهذا ما يفهم من معنى " لا " النافية للجنس لأن المعنى ليس لأحد كائنًا من كان أن يمنع عطاء قدره الله تعالى ، ولهذا مع نفى الجنس جعل العطاء عامًّا شاملاً وفى هذا من الدقة والمناسبة ومن المبالغة ، فقد نفى استطاعة المنع من أى أحد على طول الزمان ، وأى شىء يمنع ؟ إنه عطاء واسع شامل لا يقوى على منعه أحد ، وكذلك فى قوله : ولا معطى لما منعت وهذا التعبير فى جملته فنّ رائق من فنون البديع أسماه البلاغيون بالعكس والتبديل " [(١)] ، ولما يفيده هذا التعبير النبوى من كمال التفويض إلى الله والاعتراف بكمال قدرته وعظمته وقهره وسلطانه وانفراده بالوحدانية وتدبير مخلوقاته والتصريح بأنه لا حول ولا قوة إلا به وأن الخير والشر منه ، لهذا اختار العلماء أن يقع قوله : لا مانع لما أعطيت خبراً عن قوله : أحق ما قال العبد ، ويزيد التعبير النبوى ترقياً بقوله : ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، والجد : هنا بمعنى البخت والحظ ولفظ الجد يطلق على البخت والغنى والعظمة والسلطان ، ومعناه لا ينفع من رزق مالاً وولداً أو جاهاً دنيوياً شيء من ذلك عندك وهذا كما قال تعالى :﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ، إِلاَّ مَنْ

---

١ / ٣١٧ ، طبعة دار إحياء العلوم ، بيروت ، طبعة رابعة ١٩٩٨م ، وبغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى ١/ ٣٩٦ ، طبعة مكتبة الآداب ، الطبعة السابعة عشرة ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م ، ومختصر السعد التفتازانى ١ / ٢٤٨ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، وتحرير التحبير لابن أبى الأصبع ، تحقيق د / حفنى محمد شرف ص ١١١ ، القاهرة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .

(١) وهو أن يقدم فى الكلام جزء ثم يؤخر ، ينظر : الإيضاح ١ / ٣٢٩ ، والبغية ١ / ٤١٥ ، والبديع فى نقد الشعر لأسامة بن منقذ ١ / ٨ ، وقال سعد الدين : " والعبارة الصريحة ما ذكره بعضهم وهو أن تقدم فى الكلام جزءاً ثم تعكس فتقدم ما أخرت وتؤخر ما قدمت " . ينظر : مختصر السعد ١ / ٢٥٤ ، وينظر : البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ، د/ عبد الرحمن الميدانى ١ / ٧٩٨ .

أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [١] قال أهل العلم " أى لا ينفع ذا الحظ فى الدنيا بالمال والولد والعظمة والسلطان منك حظه أى لا ينجيه حظه منك ، وإنما ينفعه وينجيه العمل الصالح " كقوله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ [٢] [٣] ، قال شيخ الإسلام : " وهذا تحقيق الوحدانية لتوحيد الربوبية خلقاً وقدراً وبداية وهداية هو المعطى المانع لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، ولتوحيد الإلهية شرعاً وأمراً ونهياً وهو أن العباد وإن كانوا يعطون ملكاً وعظمة وبختاً ورياسة فى الظاهر أو فى الباطن كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة فلا ينفع ذا الجد منك الجد أى لا ينجيه ولا يخلصه من سؤلك وحسابك حظه وعظمته وغناه ولهذا قال : " منك " ولم يقل ينفعه عندك فإنه لو قيل ذلك لأوهم أنه لا يتقرب به إليك لكن قد لا يضره فيقول صاحب الجد إذا سلمت من العذاب فى الآخرة فما أبالى كالذين أوتوا النبوة والملك لهم ملك فى الدنيا وهم من السعداء فقد يظن ذو الجد الذى لم يعمل بطاعة الله من بعده أنه كان كذلك فقال : " ولا ينفع ذا الجد منك ، ضَمَّن ينفع معنى ينجى ويخلص فبين أن جده لا ينجيه من العذاب بل يستحق بذنوبه ما يستحقه أمثاله ولا ينفعه جده منك فلا ينجيه ولا يخلصه " [٤] . والذى يفهم من هذا الدعاء أن النبى ﷺ كان يجمع فى دعائه بين الحمد الذى هو رأس الشكر وبين التوحيد والاستغفار ، وهذا من الدعاء والذكر عجيب والله أعلم .

---

(١) سورة الشعراء : ٨٨ - ٨٩ .

(٢) سورة الكهف : من الآية ٤٦ .

(٣) ينظر : المنهاج للنووى ٤ / ١٩٦ ، وشرح أبى داود ٤ / ٣٧ ، والمفهم ٢ / ١٤٧ .

(٤) ينظر : مفهوم الشكر لابن تيمية ٢ / ١٤ ، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٣ / ١٣٩ .

المبحث الرابع
ما يقال من الدعاء فى السجود

الدعاء الأول :

عن حذيفة أنه صلى مع النبى ﷺ فكان يقول فى ركوعه : سبحان ربى العظيم وفى سجوده : سبحان ربى الأعلى ، وما مر بآية رحمة إلا وقف فسأل ولا بآية عذاب إلا وقف عندها فتعوذ " [١] .

مضى بنا فى مبحث سابق من أدعية الركوع قوله ﷺ : سبحان ربى العظيم " وقد ذكرت فى معنى التسبيح ومعنى الرب ما يغنى عن ذكره هنا وقلت – كما قرر العلماء – التسبيح هو التنزيه والتقديس ، و " سبحان " علم للتسبيح والتنزيه ، لما كان السجود معارج القرب ومدارج رفعة الدرجات قال تعالى : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [٢] وقال عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم " فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة " [٣] والسجود دليل التواضع والانكسار ولهذا كان له من المنزلة فى الصلاة ما ليس لغيره من الأركان وكان من الحكم اللطيفة أن شرع الله تعالى لعباده أن يقولوا فى سجودهم : " سبحان ربى الأعلى " شرع لهم ذلك على لسان نبيه وفى هدى رسوله إشارة إلى علوه الدائم حتى لا يفهم من سجود العبد على الأرض أن معبوده فى أسفل منه حاشاه بل كلما ازداد العبد خضوعاً وتذللاً لمعبوده العلىّ العظيم ازداد منه قرباً معنوياً ومعية خاصة تخص خواص عباده المؤمنين وفى هذا يقول رسول الهدى ونبى الرحمة ﷺ : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء " [٤] ومعنى كون العبد أقرب إلى الله حالة السجود من بين سائر أحواله

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٨ من هذا البحث .

(٢) سورة العلق : من الآية ١٩ .

(٣) صحيح مسلم ، باب فضل السجود ٢ / ٥١ ، حديث رقم ١١٢١ .

(٤) ينظر : صحيح مسلم ١ / ٣٥٠ ، حديث رقم ٢١٥ ، ومسند أبى يعلى تحقيق / حسين سليم أسد ١٢ / ١٢ حديث رقم ٦٦٥٨ ، ط دار المأمون للتراث ، دمشق ، طبعة

لأنه حالة تدل على غاية تذلل واعتراف بعبودية نفسه وربوبية ربه فكان مظنة الإجابة فلذلك أمر عليه السلام بإكثار الدعاء فى السجود بقوله : فأكثروا الدعاء هو ﷺ يراها فرصة سانحة فتراه يهيب بالعبد الصالح أن يغتنمها ولا يفوتها على نفسه فأنت الآن فى حال سجودك فى أقرب حالاتك إلى رضوان ربك فسارع وادع الله فهو مطلع على ضعفك وذُلّك بصير بحالك عليم بما يدور فى سويدائك والله أكرم من أن يرد عبده خائباً ولاسيما إذا دعا ربه وناداه وتقرب إليه بضعفه وذله وتحبب إليه بصفات كماله ونعوت جلاله قال صاحب الإحياء وهو يصف مشهد السجود وما ينبغى أن يكون عليه حال العبد فيه " ثم تهوى إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب وإن أمكن ألا تجعل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل فإنه أجلب وأدل على الذل وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله فإنك من التراب خلقت وإليه تعود فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله وقل سبحان ربى الأعلى وأكده بالتكرار فإن الكرة الواحدة ضعيفة الأثر " [١] واسم الله الأعلى يدل على علو الشأن وهو أحد معانى العلو فالله عز وجل تعالى عن جميع النقائص والعيوب المنافية لإلهيته وربوبيته وهو " أفعل التفضيل فعله علا يعلو علواً فالأعلى هو الذى ارتفع عن غيره وفاق فى وصفه وهى مفاضلة بين اثنين أو الجميع فى عظمة وصف أو فعل أو مفاضلة بين صاحب العلو والأعلى منه فالأعلى ذو العلى والعلاء والمعالى " [٢] قال ابن القيم " وأسماء الله

أولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، سننأبى داود ، تحقيق / محمد محى الدين ١ / ٢٩٤ ، حديث رقم ٨٧٥ ، طبعة دار الفكر ، وسنن النسائى الكبرى ، تحقيق / عبد الغفار سليمان البندارى ، وسيد حسن ١ / ٢٤٢ ، حديث رقم ٧٢٣ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

(١) إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى ١ / ١٦٩ ، طبعة دار المعرفة ، بيروت .

(٢) ينظر : لسان العرب ١٥ / ٨٥ ، وأسماء الله الحسنى فى الكتاب والسنة ، د / محمود عبد الرازق الرضوانى ٣ / ١٤٠ ، طبعة أولى ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م ، وينظر بتصرف :

الحسنى وصفاته العليا هى موضع الحمد ومن تمام حمده تسبيحه وتنزيهه عما وصفه به أعداؤه والجاهلون به مما لا يليق به وكان فى تنوع تنزيهه عن ذلك من العلوم والمعارف وتقرير صفات الكمال وتكميل أنواع الحمد ما فى بيان محاسن الشيء وكماله عند معرفة ما يضاده ويخالفه ... " [١] ولما كان السجود أفضل أركان الصلاة لما كان عليه حال العبد من القرب من ربه كما ورد فى السنة كان السجود يتطلب تنزيهاً وتعظيماً وقد صدر النبى ﷺ هذا الدعاء بـ " سبحان " ليفى بمطلب السجود من التنزيه والتعظيم لأن التسبيح يتضمن التعظيم وزِيد على ذلك اسم الأعلى وما يدل عليه من علو الشأن والتعالى عن النقائص والعيوب وقد ذكر العلماء توجيهاً دقيقاً لتخصيص الركوع للتعظيم والسجود بالأعلى قال الشوكانى " والحكمة فى تخصيص الركوع للتعظيم والسجود بالأعلى أن السجود لما كان فيه غاية التواضع لما فيه من وضع الجبهة التى هى أشرف الأعضاء على مواطئ الأقدام كان أفضل من الركوع فحسن تخصيصه بما فيه صيغة أفعل التفضيل وهو الأعلى بخلاف العظيم جعلاً للأبلغ مع الأبلغ والمطلق مع المطلق فناسب فى غاية سفوله وتواضعه أن يصف ربه بأنه الأعلى قلت والسجود وهو النهاية فى الانخفاض والذل فيقابله النهاية فى العلو وهو الأعلى وذلك إضافة إلى التعظيم المتضمن فى التسبيح فى سبحان ربه الأعلى ... " [٢] وأيضاً قد صح قوله ﷺ " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ... " [٣] فربما توهم قرب المسافة

معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول للحافظ بن أحمد الحكمى ، تحقيق / عمر بن محمود أبو عمر ١ / ١٤٤ ، طبعة دار ابن القيم - الدمام ، طبعة أولى ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .

(١) ينظر : طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ، تحقيق / عمر بن محمود أبو عمر ١ / ٢٣٦ ، طبعة دار ابن القيم ، الدمام ، طبعة ثانية ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

(٢) ينظر : نيل الأوطار ٢ / ٢٧٣ ، وعون المعبود ٣ / ٨٥ ، ومشكاة المصابيح ومعه مرقاة المفاتيح للخطيب التبريزى ٣ / ٢٩٨ ، وحاشية السندى على ابن ماجه ٢ / ٢٧٢ .

(٣) سبق تخريجه ص ٥٧ من هذا البحث .

فندب سبحان ربى الأعلى دفعا لذلك التوهم وأيضاً فى السجود غاية انحطاط من العبد فيناسبه أن يصف فيه ربه بالعلو وهذا بالنظر إلى حالة السجود وما يقال فيها يسمى عند البلاغيين بالاحتراس [١] وربما يهجس فى النفس هاجس يسأل ما الحاجة إلى التنزيه ونفى العيوب والله تعالى ليس بمظنة للعيوب أبداً بل بعده عنها متناهٍ ؟! وأقول لأن الكفرة والظلمة نسبوا إليه العيب والنقص والسوء والشريك والولد والند والمثيل ولأن التنزيه مما قالوا يتضمن تقرير الكمال المقابل فالتنزيه من تمام الحمد فلا غنى عنه ، وفى السجود من عظيم نعم الله على العبد لأنه يرده إلى حكم العبودية لما فيه من التذلل بين يديه والانكسار له وليتدارك بذلك ما حصل له من الهفوة والغفلة والإعراض الذى خرج به عن أصله فتمثل له حقيقة التراب الذى خلق منه وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه وهو الوجه وقد صار أعلاه أسفله خضوعاً وتذللاً وهذا غاية الخشوع الظاهر وأجمع العبودية لسائر الأعضاء فيعفر وجهه فى التراب استكانة وتواضعاً يقول مسروق لسعيد بن جبير " ما بقى شيء يرغب فيه إلا أن نعفر وجوهنا فى التراب لله " [٢] وكان النبى ﷺ لا يتقى الأرض بشيء قصداً بل إذا اتفق له ذلك فعله ولذلك سجد فى الماء والطين كما جاء فى الصحيحين [٣] لم يكن يتكلف شيئاً دون جهته ووجهه إذا

---

(١) وهو " أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم " . ينظر : الإيضاح ١ / ٣١٠ وشروح التلخيص ٣ / ٢٣٢ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، والإتقان ٢ / ٧٤ ، والبلاغة العالية للشيخ عبد المتعال الصعيدى ، تقديم د / عبد القادر حسين ص ١٢٩ ، طبعة مكتبة الآداب ، طبعة ثانية ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، والإطناب أنواعه وقيمته البلاغية ، د / محمود شاكر القطان ص ٤٩ ، طبعة مكتبة دار التراث بالمدينة المنورة ، طبعة أولى ١٩٨٦ م .

(٢) ينظر : سير أعلام النبلاء للذهبى ، مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط ٧ / ٦٩ ، طبعة مؤسسة الرسالة ، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم ٢ / ٩٦ ، طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت ، طبعة رابعة ١٤٠٥ هـ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، تحقيق / إحساس عباس ٦ / ٨٠ ، طبعة دار صادر بيروت ، طبعة أولى .

(٣) صحيح البخارى ٢ / ٢٢٥ ، حديث رقم ٨١٣ ، وصحيح مسلم ٢ / ٨٢٤ ، حديث رقم

صلىّ صلى على التراب فلم يكن يضع رداءه ﷺ دون وجهه وإذا صلىّ على الحصير لم يتكلف وضع وجهه على الأرض مباشرة من دون حصير " [١] وفعله هذا ﷺ دليل على تفرده بالعلم بمقام ربه سبحانه وتعالى وبذل نفسه وتواضعه لربه وفى هذا من التعليم لأمته ما فيه ، والله تعالى أعلى وأعلم .

الدعاء الثانى :

من حديث علىّ عن رسول الله ﷺ " ... وإذا سجد قال اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين " [٢] .

مضى بنا فى مبحث سابق من أدعية الركوع قوله ﷺ : " اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت ... " [٣] وإذا كان هناك يتحدث عن الركوع فهنا يتحدث عن السجود والسجود ركن من أركان الصلاة كالركوع وفى كل منهما إعلان لله تبارك وتعالى بالإذعان والخضوع والاستكانة والتذلل وهذا فيه من الافتقار إلى الله ومن التعريض بحال العبد ما يستجلب الخير ويستدفع الضر ، وقريب نسج هذا الدعاء من نسج دعاء الركوع ولعل هذا ما يؤكد على المشابهة بين معنى هذين الركنين ، فقد بدأ النبى ﷺ هذا الدعاء بنداء التفخيم والتعظيم " اللهم " استنزالاً لرحمات الله وتعريضاً بحال الداعى فهو فى كل أحواله مهربه ومفزعه إلى الله الواحد الأحد وقوله ﷺ : لك سجت : السجود فى اللغة معناه لخضوع والتذلل جاء فى معاجم اللغة " قال ابن فارس : السين والجيم والدال أصل واحد مطرد يدل على تطامن وذل يقال سجد إذا تطامن وكل ما ذل فقد سجد وقال

. ١١٦٧

(١) ينظر بتصرف : الصلاة وأحكام تاركها لابن القيم ، تحقيق / بسام عبد الوهاب الجابى ١ / ٢١٠ ، طبعة الجفان والجابى ، دار ابن حزم ، قبرص ، بيروت ، طبعة أولى ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

(٢) صحيح مسلم ٢ / ١٨٥ ، حديث رقم ١٨٤٨ ، طبعة دار الجيل ، بيروت .

(٣) سبق تخريجه ص ٣٧ من هذا البحث .

الأزهرى قال الواحدى أصله فى اللغة الخضوع والتذلل قال وسجود كل شيء فى القرآن طاعته لما سجد له هذا أصله فى اللغة ثم قيل لكل من وضع جبهته على الأرض سجد لأنه غاية الخضوع ، ولا خضوع أعظم منه " [١] .

وقوله : لك سجدت تقرير وتحقيق بأن هذا الفعل وهو السجود وما يستلزمه من الإذعان والانقياد والخضوع التطامن هو حق الله تعالى على العبد ولا ينبغى أن يصرف هذا الفعل لغير الله ولهذا يقول أعبد الخلق إلى الله : لك سجدت يعنى لك خضعت وذللت واستكنت ، ولما كان هذا الفعل ربما يقع لغير الله تعالى أكد النبى ﷺ أن هذا الفعل وهو السجود خاص بالله تعالى وحده دون غيره ولا ينبغى أن يقع لسواه يفهم هذا من الأسلوب البديع أسلوب القصر " لك سجدت " وما يفيده تقديم الجار والمجرور من الاختصاص والقصر وفيه قصر صفة السجود على الله وحده قال أهل العلم " اللهم لك سجدت : قدم للاختصاص [٢] وقوله وبك آمنت هو فى معناه كما هو فى دعاء الركوع وقد مضى وفى إعادته فى ركن السجود زيادة تقرير لحقيقة الإيمان واستمرار فى إعلانه ليشير بذلك إلى وجوب استحضار العبد لهذه الحقيقة وأن فى تكريرها وإعادتها تذكيراً للعبد بما ينبغى أن يكون عليه من التصديق واليقين وتجديداً لغذاء روحه ومحافظة على رسوخ هذه الحقيقة فى النفس وهذا يتطلب منه المداومة على الاستقامة ويشعره بهذه الحقيقة العظيمة حقيقة الإيمان وفى عطف قوله : بك آمنت على قوله : لك سجدت عطف للعام على الخاص لأن الإيمان لما كان قولاً وفعلاً كان السجود - بصفته فعلاً - داخلاً فى حقيقة الإيمان فكان فى عطفه عليه عطف للعام على الخاص اهتماماً به وإعلاء لشأنه ، وفى تقديم السجود على الإيمان - مع أن الإيمان أصل ومقدم عليه ، والسجود مظهر من مظاهره - اهتمام به وفيه مراعاة

---

(١) ينظر : معجم مقاييس اللغة ٣ / ١٣٣ ، واللسان ٣ / ٢٠٤ ، وتهذيب اللغة ١٠ / ٣٠٠ ، وتهذيب الأسماء واللغات للنووى ١ / ١١٥٥ ، والمخصص لابن سيده ٣ / ٣٣٣ ، والنهاية فى غريب الحديث والأثر ٢ / ٨٦٠ .

(٢) ينظر : تحفة الحبيب على شرح الخطيب للبجيرمى ٢ / ٢٢٩ .

للحالة التى عليها العبد ولهذا بدأ به ، وقوله لك أسلمت تأكيد وتقرير لحقيقة الإسلام وتذكير للنفس بها حتى لا تسيطر عليها الغفلة فتخرجها من دائرة الاستسلام إلى فضاء الانفلات والتحرر والذى من شأنه أن يعين على الفساد وعلى استمرار العبث ، وفى تقديم الجار والمجرور " لك " قصر وتخصيص وأن هذا واجب لله وحده ولا ينبغى أن يشرك فيه أحد مع الله تعالى ، وفى عطفه ولك أسلمت على قوله وبك آمنت عطف للعام على الخاص وقد تقدم الكلام فى شبيه هذا أما قوله ﷺ : سجد وجهى فمعناه خضع وذل وانقاد للذى خلقه أى أوجده من العدم وتتجلى البلاغة النبوية فى هذا التعبير الرائق فى إسناد السجود للوجه مع أن الإنسان يقع على الأرض بجملته ومنها وجهه فالمعنى سجد وجهى وكل بدنى ولكنه ﷺ خص الوجه بالذكر لأنه أشرف أعضاء الساجد وفيه بهاؤه وتعظيمه فإذا خضع وجهه فقد خضع باقى جوارحه فهو من باب إطلاق الجزء على الكل أو أن المراد الوجه حقيقة ويلزم من سجوده سجود باقى بدنه وفى إضافة الوجه إلى ضمير المتكلم – وجهى – إشارة إلى وقوع هذا الفعل منه خاصة وفى الإضافة أيضاً إشارة بالاغتباط بهذا الفعل وكأنه يعلن أنه قد حقق الذل التام لله تعالى وهو وضع جبهته على الأرض تذللاً واستكانة وهو من أعظم مظاهر العبودية وهو أشرف حالات العبد وأقربها إلى الله وهذا مظنة الإجابة وتحقيق الرجاء فماله لا يغتبط إذاً ؟ ولم يقل سجد وجهى لربى أو لله ولكنه آثر التعبير بالموصول [١] " الذى خلقه " ليدل على فرضية هذا الأمر وأن شرف العبد ورفعته فى سجوده كيف لا ؟ وهو إنما يسجد للذى أوجده ولم يكن شيئاً مذكوراً وفيه إشارة إلى كمال استحقاق الله تعالى لهذا السجود فإذعان العبد وذله لله لأنه خالقه ومبدعه فهو

---

(١) قال سدنة البيان : " يؤتى بالمسند إليه اسم موصول إذا تعين طريقاً لإحضار معناه أما إذا لم يتعين طريقاً لذلك فيكون لأغراض أخرى وذلك حسب المقام " . ينظر : الإيضاح ١ / ٣٠٦ وما بعدها ، وجواهر البلاغة ص ١٠٤ ، وقد ذكر العلامة الشيخ أبو موسى " أن المهم فى أنواع التعريف التعريف بالصلة لأنه تكثر إشاراته " . ينظر : خصائص التراكيب ١٩٣ ، طبعة مكتبة وهبة ، طبعة خامسة ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .

يبرهن بهذا الفعل على أنه مخلوق لله وفى هذا رفعته وشرفه : وقوله ﷺ : سجد وجهى وقد تقدم الإقرار بالسجود فى قوله : لك سجدت – احتراس واحتراز حتى لا يصرف معنى السجود الأول إلى مجرد الذل والخضوع فربما ذل الإنسان وخضع بالوقوف والإنصات من غير أن يتحرك وربما ذل بغير ذلك لكن فى ذكر قوله : سجد وجهى إقرار بأنه سجود فعلى لا مجرد خضوع وتطامن ، وفيه تصوير لركن السجود وأنه لا يتأتى إلا بوضع الوجه الذى هو أشرف الأعضاء على الأرض وفى ذكر السجود مرة أخرى تكرار ولعله فى الأولى : لك سجدت يقرر حقيقة السجود وأنه لا يكون إلا لله وفيه إقرار بالإذعان والامتثال وفى الثانية : سجد وجهى : شروع فى كيفية السجود وبيان هيئته وأنه انكباب وخرور على الأرض ووضع للجبهة وبقية الأعضاء على الأرض ففيه تقرير للمعنى الأول وزيادة وقوله ﷺ وصوّره : عطفاً على خلقه يفيد – كما هو مقرر – المغايرة يعنى أن الخلق شيء والتصوير شيء آخر ولإثبات هذه المغايرة كان علينا الوقوف على مفهوم كل كلمة ليتضح لنا الفرق بينهما ومن ثم نتعرف على سر هذا العطف وقد جاء فى كتب المعاجم أن الخلق معناه التقدير يقال خلقت الأديم إذا قدرته قبل القطع " [(١)] وقال الراغب : الخلق أصله التقدير المستقيم ويستعمل فى إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء [(٢)] .

أما عن اسم الله الخالق الذى الخلق فعله فهو مخرج الأشياء من العدم إلى الوجود المقدر لها على صفاتها قال الحليمى " ومعناه الذى صنف المبدعات وجعل لكل صنف منها قدراً فوجد فيها الصغير والكبير والطويل والقصير والإنسان والبهيمة والدابة والطائر والحيوان والموات ..." [(٣)] أما التصوير فهو خلق على صورة مرادة تشعر بالعناية قال الراغب " والصورة ما ينتقش به الأعيان ويتميز

---

(١) ينظر : العين ٤ / ١٥١ ، والصحاح ٥ / ١٥٦ ، والنهاية فى غريب الحديث والأثر ٢ / ١٤٤ ، وتفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ١ / ٣٥ .

(٢) مفردات الراغب ١ / ٣٢١ .

(٣) ينظر : الأسماء والصفات للبيهقى ١ / ٧٣ .

بها عن غيرها " [١] أما عن اسم الله المصور الذى التصوير فعله فقد قال الحليمى " معناه المهيئ لمناظر الأشياء على ما أراده من تشابه أو تخالف ... قال الخطابى : المصور الذى أنشأ خلقه على صور مختلفة ليتعارفوا بها ومعنى التصوير : التخطيط والتشكيل " [٢] .

ويفرق الإمام الغزال – رحمه الله – بين أسماء الله تعالى الخالق البارئ المصور وعن تواليها يقول " قد يظن أن هذه الأسماء مترادفة وأن الكل يرجع إلى الخلق والاختراع ولا ينبغى أن يكون كذلك بل كل ما يخرج من العدم إلى الوجود فيفتقر إلى تقدير أولاً وإلى الإيجاد على وفق التقدير ثانياً وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثاً والله سبحانه وتعالى خالق من حيث إنه مقدر وبارئ من حيث إنه مخترع موجد ومصور من حيث إنه مرتب صور المخترعات " أحسن ترتيب " [٣] بهذا يتبين أن الفرق واضح بين الخلق والتصوير وأن الخلق مرحلة سابقة للتصوير والتصوير مرحلة تالية لها هى مرحلة التسوية والتعديل والتقويم والتى أشارت إليها الآيات ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [٤] و ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [٥] ويكون العطف من قبيل عطف التفصيل والترقى فى الأسلوب من العموم إلى الخصوص فالخالق عام والبارئ أخصّ منه والمصور أخص من الأخص كما نقل ذلك صاحب التحرير والتنوير [٦] ويكون المعنى " وصوره على هذه الصورة العجيبة أى جعل له فماً وعينين وأنفاً وأذنين ورأساً ويدين وبطناً ورجلين إلى غير ذلك وحينئذ يكون عطف التصوير

---

(١) ينظر : مفردات الراغب ١ / ٥٩٩ ، والتحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ٢٤ / ٢٣٥ ، طبعة مؤسسة التاريخ العربى ، بيروت ، لبنان ، طبعة أولى ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقى ١ / ٧٩ .

(٣) ينظر : المقصد الأسنى للغزالى ١ / ٧٥ ، والكشاف ٤ / ٥٠٩ .

(٤) سورة الانفطار : ٧ ، ٨ .

(٥) سورة التين : ٤ .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٣٥ .

على الخلق مغايرًا وهو - أعنى قوله وصوره - دفع لما قد يقال إنه خلق مادة الوجه دون صورته " [١] فالخلق تقدير وإيجاد والتصوير تسوية وتعديل وتقويم وهذا من أوابد البيان فينبغى أن يعرف وتجمع عليه الأيدى ، هذا .. وقد زاد الإمامان مسلم [٢] وأبو داود [٣] - رحمهما الله بعد قوله وصوره قوله : فأحسن صوره وهو الموافق لقوله تعالى ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [٤] ، وأستأنس بما قاله صحب التحرير فى معنى قوله تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [٥] قال " هذا ادماج امتنان على الناس بأنهم مع ما خلقوا عليه من ملابسة الحق على وجه الإجمال وذلك من الكمال وهو ما اقتضته الحكمة الإلهية فقد خلقوا فى أحسن تقويم إذ كانت صورة الإنسان مستوفية الحسن متماثلة فيه لا يعتورها من فظاعة بعض أجزائها ونقصان الانتفاع بها ما يناكد محاسن سائرها بخلاف محاسن أحاسن الحيوان من الدواب والطير والحيتان من مشى على أربع مع انتكاس الرأس غالباً أو زحف أو نقز فى المشى فى البعض " [٦] وقال القرطبى - رحمه الله - فإن قيل كيف أحسن صورهم ؟ قيل له جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه صورة بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور ومن حسن صورته أنه خُلق منتصباً غير منكب " [٧] وقال صاحب الكشاف " فإن قلت فيكم من دميم مشوه الصورة سمج الخلقة تقتحمه العيون ؟ قلت لا سماجة ثم ولكن الحسن كغيره من المعانى على طبقات

---

(١) ينظر : تحفة الحبيب ٢ / ٢٣٠ .

(٢) ينظر : صحيح مسلم ٢ / ١٨٦ ، حديث رقم ١٨٤٩ ، طبعة دار الجبل ، بيروت .

(٣) سنن أبى داود ١ / ٢٧٧ ، حديث رقم ٧٦٠ .

(٤) سورة غافر : ٦٤ ، وسورة التغابن : ٣ .

(٥) سورة التغابن : ٣ .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٣٧ وما بعدها .

(٧) تفسير القرطبى ١٨ / ١٣٤ ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

ومراتب فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطاً بيننا وإضافتها إلى الموفى عليها لا تستملح وإلا فهى داخلة فى حيز الجسم غير خارجة عن حده ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها ثم ترى أملح وأعلى وقالت الحكماء : " شيئان لا غاية لهما : الجمال والبيان " [١] وهذه المعانى تسحب بالطبع على ما نحن بصدده من زيادة مسلم وأبى داود وفى ذكر هذا من النبى ﷺ اعتراف بنعمة الخلق والإيجاد والتصوير ونسبته إلى فاعله وهو الله تعالى وتقدس وفى قوله : فأحسن صوره : إشهار لهذا الامتنان وإعلاء من قيمة هذا العطاء وهذا منتهى الذكر والشكر فهو يذكر ربه بما أولاه به ويشكره عليه بتعداده وسرده ، فأقول إذا لم يقم بهذا الاعتراف ويفعل هذا الشكر محمد ﷺ ويعلمه وهو أعلم الخلق بربه فمن ؟ وفى هذا من التعليم للأمة مما لا ينبغى أن يغفل وهذه منة وعطية ينبغى أن تعرف لله وأن يحمد بها ثم يتبع ﷺ هذا بقوله : وشق سمعه وبصره قال الإمام العينى : " وشق سمعه وبصره : من الشق بفتح الشين أى فلق وفتح " [٢] وهذا من جملة التصوير إلا أن فيه زيادة بيان فالتصوير وإن كان معناه التخطيط والتشكيل ففى شق السمع والبصر توضيح لكيفية التصوير وكيف كان التصوير فى السمع والبصر قال ابن فارس : " الشين والقاف : أصل واحد صحيح يدل على انصداع فى الشيء ثم يحمل عليه ويشتق منه على معنى الاستعارة تقول : شققت الشيء أشقه شقاً إذا صدعته ، والشق : الصدع البائن وقيل غير البائن وقيل وهو الصدع عامة " [٣] وبناءاً على هذا التحقيق اللغوى لبيان معنى الشق يتبين أن الشق إذاً لا ينصرف إلى السمع والبصر لأن السمع والبصر من المعانى لا يتصور فيهما شق وهما صفتان حادثتان يتعلقان بالموجود فالأول خاص بالمسموع والثانى بالمبصر ويكون المعنى على هذا أى

---

(١) الكشاف ٤ / ٥٤٨ ، ونظم الدرر للبقاعى ، تحقيق / عبد الرازق غالب المهدى ٨ / ٧ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .

(٢) ينظر : شرح أبى داود للعينى ٣ / ٣٦٥ .

(٣) ينظر : معجم مقاييس اللغة ٣ / ١٧٠ ، ولسان العرب ١٠ / ١٨١ .

شق طريق السمع والبصر " لأن السمع ليس فى الأذنين بل فى مقعر الصماخ " [١] وطريق السمع والبصر أى منفذهما الذى من خلاله يتأتى السمع ويتحقق وكذلك البصر ، ثم يختم النبى ﷺ دعاءه بذكر الثناء على الله تعالى الذى يستحق كل حمد وكل ثناء فإيجاده العبد ثم تصويره على أحسن صورة امتنان منه تعالى يستوجب الذكر والشكر ، ولهذا يعلمنا الرسول الكريم أن نختم دعاءنا بهذا الثناء العظيم " تبارك الله أحسن الخالقين " ، وتبارك فى لغة العرب تدل على عدة معانى تتفق جميعها ولا تختلف فهى مشتقة من البركة وهى " النماء والزيادة والعلو والكثرة فى كل خير " [٢] وقال أهل اللغة فى معنى تبارك " أى تكاثر خيره أو تزايد على كل شيء وتعالى عنه فى صفاته وأفعاله وتبارك الله : تقدس وتنزه وتعالى وتعاظم لا تكون هذه الصفة لغيره أى تطهر ، والقدس : الطهر وسئل أبو العباس عن تفسير تبارك الله فقال ارتفع ، والمتبارك : المرتفع ، وقال الزجاج : تبارك : تفاعل من البركة كذلك يقول أهل اللغة ، وروى عن ابن عباس ومعنى البركة : الكثرة فى كل خير وقال فى موضع آخر تبارك : تعالى وتعاظم وقال ابن الأنبارى : تبارك الله أى يتبرك باسمه فى كل أمر ، وقال الليث فى تفسير تبارك الله : تمجيد وتعظيم وفُسّر على تعالى الله " [٣] وعلى الجملة فهى كلمة تدل على تمجيد الله تعالى وتعظيمه وتنزيهه وفى اقتصار الوصف بها على الله تعالى خصوصية

---

(١) ينظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفورى ٣ / ٣٤٠ .

(٢) ينظر بتصرف : الاشتقاق لابن دريد ، تحقيق / عبد السلام هارون ١ / ٢٤٧ ، طبعة مكتبة الخانجى مصر ، طبعة ثالثة ، والزاهر فى غريب ألفاظ الشافعى للأزهرى ، تحقيق / محمد جبر الألفى ١ / ٩٠ ، طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت ، طبعة أولى ١٣٩٩ هـ .

(٣) ينظر فى ذلك : معجم مقاييس اللغة ١ / ٢٣١ ، ولسان العرب ١٠ / ٣٩٥ ، والزاهرى فى معانى كلمات الناس لأبى بكر ابن الأنبارى ١ / ٥١ ، تحقيق د / حاتم صالح الضامن ، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت ، طبعة أولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، وكتاب الكليات ١ / ٤٨٩ .

فى معناها ومبناها فهى كلمة لا تطلق ولا يوصف بها غير الله تعالى وقالوا إنها - كذلك - لا تتصرف [١] وقد اطردت هذه اللفظة فى القرآن الكريم جارية على الله مختصة به لا تطلق على غيره وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعاظم ونحوهما فجاء بناء تبارك على بناء تعالى الذى هو دال على كمال العلو ونهايته وفى إسنادها إلى لفظ الجلالة " الله " تحقيق لهذا الاختصاص وتقرير وتوكيد وفى إيثار لفظ الجلالة " الله " دون غيره من الأسماء الحسنى تربية للمهابة وإدخال الروعة والإشعار بأن ما ذكر من الخلق والتصوير على أحسن صورة من الأفاعيل العجيبة هو من أحكام الألوهية وللإيذان بأن حق كل من سمع ما فصل من آثار قدرته عز وعلا أو لاحظه أن يسارع إلى التكلم به إجلالاً وإعظاماً لشئونه ، وقوله : أحسن الخالقين : " أى المقدرين والمصورين فإنه الخالق الحقيقى المنفرد بالإيجاد والإمداد وغيره إنما يوجد صوراً قال الكعبى : لكن لا يطلق الخالق على العبد إلا مقيداً كالرب " [٢] وقال الإمام الألبانى - رحمه الله - أحسن الخالقين أى أتقن الصانعين ، يقال لمن صنع شيئاً : خلقه ومنه قول الشاعر : ولأنت تفرى ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم يفرى [٣] قال القرطبى فى تفسيره " وذهب بعض الناس إلى نفى هذه اللفظة عن الناس - يعنى الخالق - وإنما يضاف الخلق إلى الله تعالى وقال ابن جريج إنما قال أحسن الخالقين لأنه تعالى قد أذن لعيسى عليه السلام أن يخلق واضطرب بعضهم فى ذلك ولا تنفى

---

(١) قال ابن عطية " وتبارك لا يتصرف فى كلام العرب لا يقال منه يتبارك وهذا منصوص عليه لأهل اللسان قال القاضى أبو محمد وعلة ذلك أن تبارك لما لم يوصف بها غير الله لم تقتض مستقبلاً إذ الله قد تبارك فى الأزل " . ينظر : المحرر الوجيز ، تحقيق / عبد السلام عبد الشافى ٢ / ٤٧٦ ، طبعة دار الكتب العلمية لبنان ، طبعة أولى ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م ، وتفسير الثعالبى ٢ / ٢٣ ، طبعة مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، بيروت .

(٢) ينظر : نيل الأوطار ٢ / ٢٠٨ ، ومشكاة المصابيح ٣ / ١٨٩، وتحفة الحبيب ٢ / ٢٣٠ .

(٣) ينظر : ديوان زهير بن أبى سلمى ١ / ١٩ .

اللفظة عن البشر فى معنى الصنع وإنما هى منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم " [١] وعلى هذا المعنى تكون هذه الجملة – تبارك الله أحسن الخالقين – بعد الإقرار والاعتراف بأن السجود للوجه وجميع الأعضاء هو لله وحده وأن الله تعالى هو المتفضل بالإيجاد والإمداد والتصوير فى أحسن هيئة وأجمل صورة تكون تذليلاً [٢] للجمل السابقة قبلها تؤكد معناها وتشير إلى أن الخلق والتصوير من فعل الله وحده فينبغى أن يعلم الجميع ذلك حتى يقوموا بما يستلزمه من الإذعان والشكر والاعتراف بالخالقية له سبحانه وهذا من النبى محمد ﷺ منتهى العبودية فعلاً وتبليغاً لأنه يقول ذلك وهو على أكمل وجه فى الأداء والتبليغ ، ولا يفوتنى أن أشير إلى حذف متعلق الفعل " تبارك " وما يفيده من العموم والشمول ليشمل عظمة الخير فى الخلق وفى غيره وكذلك حذف متعلق " الخالقين " يعم خلق الإنسان وخلق غيره كالجبال والسموات ، والله تعالى أعلم .

---

(١) ينظر : أصل صفة صلاة النبى ﷺ للألبانى ٢ / ٧٦٢ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٢ / ١١٠ .

(٢) هو فى اصطلاح البلاغيين " تعقيب الجملة التامة – نظماً كانت أو نثراً – بجملة تشتمل على معناها لتوكيد منطوقها أو مفهومها ليظهر المعنى لمن لم يفهمه ويتقرر عند من فهمه " . ينظر فى ذلك : الصناعتين تحقيق / على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم ٣٩٥ ، طبعة دار الفكر العربى ، طبعة ثالثة بدون ، والطراز للعلوى ٣ / ١٣١ ، طبعة دار الكتب العلمية ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، والإيضاح ١ / ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، وشروح التلخيص ٣ / ٢٢٢ ، والمصباح فى المعانى والبيان والبديع لبدر الدين ابن مالك ، تحقيق د / حسنى عبد الجليل يوسف ٢٣٠ ، طبعة مكتبة الآداب بالجماميز بدون .

المبحث الخامس

ما يقال من الدعاء بين السجدتين

عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يقول بين السجدتين : " اللهم اغفر لى وارحمنى وعافنى واهدنى وارزقنى " [١] .

من أركان الصلاة ركن لابد منه فى الصلاة وهو الجلسة بين السجدتين وقد شرع فيه من الدعاء ما يليق به ويناسبه وهو سؤال العبد المغفرة والرحمة والعافية والهداية والرزق فإن هذه الأمور تتضمن جلب خيرى الدنيا والآخرة ودفع الشرور فيهما وفى استهلال الدعاء بهذا النداء الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى والذى فيه من التفخيم والتعظيم ما يقوم مقام التعريض بعظمة المدعو سبحانه وبشدة افتقار الداعى وهذا كفيل بقضاء الحوائج وتحصيل المطلوب ، والعبد الضارع إلى الله تعالى يغريه مقام ربه العظيم فيريد العبد أن يجرد نفسه من كل تعلق بالدنيا وهذا مما يزيد من طمعه فى جناب ربه فيبدأ ابتداء بالتجرد من كل حول وطول واعتراف باكتساب الخطيئة والوقوع فى المعصية حتى يقدم على الله نقياً صافيا وهذا هو سر البدء بطلب المغفرة أولاً ولك أن تتأمل هذا الدعاء لو بُدئ بطلب الرزق مثلاً لا تجد فيه هذا الإشارة التى يعلن فيها العبد عن عصيانه واقترافه للذنوب ليس هذا بل ويطلب من ربه أن يسترها عليه وهذا إيذان بصدق الدعاء وإعلان بالافتقار إلى مغفرة الله والوقاية من آثار الذنوب ولأزيد الأمر وضوحاً أود الوقوف على دلالة مادة الغفران فى كتب اللغة وقد جاء فى كتاب التعريفات " المغفرة هى أن يستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته حتى إن العبد إن ستر عيب سيده مخافة عتابه لا يقال غفر له " [٢] وفى هذا الكلام دلالة على أن الغافر لابد أن يكون قادراً والمغفور له لابد أن يكون تحت القدرة وهكذا ينبغى أن يكون شأن العبد مع الرب وقال صاحب المفردات "

---

(١) سنن أبى داود ١ / ٣١٦ ، حديث رقم ٨٥٠ ، باب الدعاء بين السجدتين .

(٢) التعريفات ، تحقيق / إبراهيم الإبيارى ١ / ٢٨٦ ، والتوقيف على مهمات التعاريف ١ / ٦٦٨ .

الغفر هو إلباس ما يصونه عن الدنس ومنه قيل اغفر ثوبك فى الوعاء ، واصبغ ثوبك فإنه اغفر للوسخ والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب "[١] وقد دارت مادة (غفر) فى كتب اللغة حول معنى التغطية والستر وكل شيء سترته فقد غفرته ومنه غفر الله ذنوبه أى سترها " [٢] والذى يطلب من الله المغفرة إنما يطلب متعرضاً لاسم الله الذى اختص بتحقيق هذا المطلب وإنفاذه وهو الغافر أو الغفور أو الغفار وكلها أسماء الله تعالى وفى هذا توسل إلى الله تعالى فى أعلى درجات التوسل وهو التوسل بأسمائه وصفاته وهذا من دعاء المسألة قال البيهقى " قال الحليمى فى معنى اسم الله الغفور " هو الذى يكثر منه الستر على المذنبين من عباده ويزيد عفوه على مؤاخذته " [٣] وبهذا إذا قال العبد رب اغفر لى فقد أحسن فى مناجاة ربه لأنه يستشفع إلى الله تعالى ويتوسل إليه بالاسم المختص بالمغفرة والستر وهذا الدعاء من أعظم أسباب إجابة الدعوة وكشف البلوى ولا يفوتك أن تعلم أن التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته من دلائل التوحيد ومن ثقة الموحدين ، وإذا ما نظرنا فى دعاء النبى ﷺ وجدنا كمال الفقه فى الدعاء بأسماء الله وصفاته فإذا قلنا – كما علمنا الرسول الكريم – اللهم اغفر لى فهذا دعاء تسأل فيه ربك أن يستر عليك الذنب والعيب فلا تفتضح فى الدنيا ولا فى الآخرة ، والأمر الثانى هو أن يقيك شؤم هذه الذنوب والمعاصى فلا تؤاخذ بها فى الدنيا ولا فى الآخرة ثم يتزايد الطمع فى جناب الله تعالى فيتلو الدعاء بطلب الستر والتغطية للذنوب طلب الرحمة وهو المنصوص عليه بقوله ﷺ " وارحمنى " وقد جاءت الرحمة فى كتب اللغة بمعنى الرأفة والرقة والتلطف والتعطف يقال رحمه يرحمه إذا رق له وتعطف عليه والمرحمة مثله وقد

---

(١) المفردات ١ / ١٥٥ .

(٢) ينظر بتصرف : العين ٤ / ٤٠٦ ، واللسان ٥ / ٢٥ ، وتهذيب اللغة ٨ / ١١٢ ، والمصباح ٣ / ٣٣٤ ، والقاموس ١ / ٥٨٠ .

(٣) الأسماء والصفات للبيهقى ١ / ١٥٢ .

رحمته وترحمت عليه وتراحم القوم رحم بعضهم بعضاً " [١] قال الراغب : والرحمة رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم وقد تستعمل تارة فى الرقة المجردة وتارة فى الإحسان المجرد عن الرقة نحو : رحم الله فلاناً وإذا وصف به البارى فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة " [٢] وهذا من الراغب يعد فى أعلى درجات الدقة والاحتراز من الإطلاق العام لمفهوم الرحمة حيث لا يصح أن تطلق بمعنى الرقة على الله تعالى وهذا منه - رحمه الله - أدب عال قال ابن القيم " وأما الرحمة فى التعلق والسبب الذى بين الله وبين عباده ، فالتأليه منهم له والربوبية منه لهم ، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده بها أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وبها هداهم وبها أسكنهم دار ثوابه وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم فبينهم وبينه سبب العبودية وبينه وبينهم سبب الرحمة ... " [٣] والداعى بطلب الرحمة إنما يتعرض لاسم الله الرحيم أو الرحمن وهو الذى من شأنه أن ينجح قصده وأن يمنحه سؤله وقد ذكر الحليمى فى معنى اسم الله الرحمن أنه " المزيح للعلل " قال ابن حجر لأنه لما أمر بعبادته بين حدودها وشروطها فبشر وأنذر وكلف ما تحمله بنيتهم فصارت العلل عنهم مزاحة والحجج منهم منقطعة " [٤] أما عن اسم الله الرحيم سبحانه فقد ذكر الحليمى " أنه المثيب على العمل فلا يضيع لعامل عملاً ولا يهدر لساع سعياً وينيل بفضل رحمته من الثواب أضعاف عمله " [٥] فالرحمن ذو الرحمة الشاملة التى وسعت الخلق فى أرزاقهم وأسباب

---

(١) ينظر بتصرف : الصحاح ٦ / ٢٠٧ ، واللسان ١٢ / ٢٣٠ ، ومقاييس اللغة ٢ / ٤٩٨ ، والقاموس المحيط ١ / ١٤٣٦ .

(٢) المفردات ١ / ٣٩١ .

(٣) مدارج السالكين تحقيق / محمد حامد الفقى ١ / ٣٥ ، طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت ، طبعة ثانية ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .

(٤) ينظر : الأسماء والصفات للبيهقى ١ / ١٣٥ ، وفتح البارى لابن حجر ١٣ / ٣٥٨ .

(٥) ينظر : الأسماء والصفات ١ / ١٣٥ ، والمقصد الأسنى للغزالى ١ / ٦٢ ، وفتح البارى ١٣ / ٣٥٨ .

معايشهم ومصالحهم وعمت المؤمن والكافر والصالح والطالح ، وأما الرحيم فخاص بالمؤمنين كقوله تعالى ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾ [١] ورحمة الله تعالى من أعظم صفاته بالنسبة لعباده فهى تفتح أبواب الرجاء والأمل وتدفع أبواب الخوف واليأس وتشعر الشخص بالأمن والأمان ، والله عز وجل غلبت رحمته غضبه ، ولهذا كان من المناسبة طلب الرحمة هنا عقب طلب المغفرة مباشرة فإذا ما سُترت الذنوب وتغطت العيوب خف حمل العبد وأغراه ذلك بمواصلة الطلب والطمع فما يبقى أمامه أن يشعر بسهولة الطريق ويُسر السير فتجئ الرحمة لتفتح أبواب الرجاء والأمل وتشعر بالأمن والأمان وكأن فى ذكر الرحمة عقب المغفرة ترقياً من الأدنى إلى الأعلى لأن المغفرة كالتخلية لما فيها من التنزيه من أقذار المعاصى وعقبها بالرحمة لأنها كالتحلية فربما غفر للمرء ذنبه وظل قانطاً يائساً أما بالرحمة فيتبدل كل ذلك ويتحصل العبد على ما هنالك ، وملاحظة فى دقة التعبير النبوى الشريف فى طلب المغفرة والرحمة : " اغفر لى ، وارحمنى " وما يدل عليه ضمير المتكلم فيهما من الاعتراف بالذنب وطلب الستر وهو يتكلم عن نفسه خاصة لا عن غيره وفى هذا الاعتراف منتهى الصدق مما يشعر بعظم الرغبة وشدة الحاجة إلى هذا الطلب وفيه إشعار بالضعف والعجز والرغبة فى طلب الخلاص والنجاة ثم يترقى أسلوب الدعاء النبوى فيطلب بعد المغفرة والرحمة العافية – وعافنى – والعفو فى كتب اللغة يدور حول معانى المحو والصفح عن الجانى والتجاوز عن الذنب وترك عقوبة المستحق وأصله المحو والطمس قال صاحب اللسان " العفو : هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه وأصله المحو والطمس .. وكل من استحق عقوبة فتركتها فقد عفوت عنه ... وأما العافية فهو أن يعافيه الله تعالى من سقم أو بلية وهى الصحة ضد المرض يقال عافاه الله وأعفاه أى وهب له العافية من العلل والبلايا وأما المعافاة فأن يعافيك الله من الناس ويعافيهم منك أى يغنيك عنهم ويغنيهم عنك ويصرف أذاهم عنك وأذاك عنهم وقيل هى مفاعلة من العفو وهو أن يعفو عن الناس ويعفوا هم

---

(١) سورة الأحزاب : ٤٣ .

عنه " [١] وقال الراغب : " العفوّ : القصد لتناول الشيء يقال عفاه واعتفاه أى قصده متناولاً ما عنده ، وعفت الريح الدار أى قصدتها متناولة آثارها ... وعفوت عنه : قصدت إزالة ذنبه صارفاً عنه ... فالعفو هو التجافى عن الذنب ... وترك العقوبة ... والسلامة " [٢] والذى يطلب من ربه العفو والعافية والمعافاة إنما يتعرض لاسم الله العفو وهو الاسم الذى يختص بتحقيق كل ذلك وقد ذكر الحليمى فى معناه " إنه الواضع عن عباده تبعات خطاياهم وآثامهم فلا يستوفيها منهم وذلك إذا تابوا واستغفروا أو تركوا لوجهة أعظم ما فعلوا ليكفر عنهم ما فعلوا بما تركوا أو بشفاعة من يشفع لهم أو يجعل ذلك كرامة لذى حرمة لهم به وجزاءً له بعمله .. " [٣] فالعفوّ : هو الذى له العفو الشامل الذى وسع ما يصدر من عباده من الذنوب ولاسيما إذا أتوا بما يسبب العفو عنهم من الاستغفار والتوبة والإيمان والأعمال الصالحة فهو سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، وهو عفوّ يحب العفو ويحب من عباده أن يسعوا فى تحصيل الأسباب التى يناولون بها عفوه من السعى فى مرضاته والإحسان إلى خلقه ولهذا ندبنا رسول الله ﷺ أن نسأل الله العفو والعافية والمعافاة فى الدين والدنيا والآخرة فقد سألت أم المؤمنين عائشة – رضى الله تعالى عنها – كما جاء فى ليلة القدر – ماذا أقول إن أنا صادفتها ؟ قال قولى " اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى " [٤] وهذا دليل على عظم شأن العفو وأنه مطلوب لكل إنسان لأنه ما من عبد إلا وقد ألمّ بذنب فإذا صفا قلبه رجا عفو ربه بمحو ذنبه وليقدر على تحقيق الشكر الذى هو حق المنعم ثم بعد ذلك يتوجه الداعى ﷺ بطلب الهداية وذلك فى

---

(١) ينظر : اللسان ١٥ / ٧٢ ، والصحاح ٧ / ٢٨٢ ، وتاج العروس ٣٩ / ٦٧ ، ٧١ ، ومعجم مقاييس اللغة ٤ / ٥٦ .

(٢) المفردات ٢ / ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٣) ينظر : الأسماء والصفات ١ / ١٤٩ .

(٤) ينظر : المستدرك للحاكم ١ / ٧١٢ ، حديث رقم ١٩٤٢ ، وسنن النسائى الكبرى ٤ / ٤٠٧ ، حديث رقم ٧٧١٢ ، ومسند أحمد ٤٣ / ٢٧٧ ، حديث رقم ٢٦٢١٥ .

قوله : " واهدنى " والهداية كما هى فى كتب اللغة " الهدى : الرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب وقد هداه الله للدين يهديه هُدًى وهَدْيا وهداية وهِدية بكسرهما أى أرشده ، وهدى واهتدى بمعنى واحد ، وهداه الله الطريق هداية أى عرفه والهدى : نقيض الضلالة " [١] وقد قسم صاحب المفردات الهداية على أربعة أوجه : الأول : الهداية التى عمّ بحسبها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التى أعمّ منها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله كما قال ربنا : ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [٢] الثانى : الهداية التى جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك وهو المقصود بقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [٣] الثالث : التوفيق الذى يختص به من اهتدى وهو المعنىّ بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [٤] وقوله : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [٥] الرابع : الهداية فى الآخرة إلى الجنة المعنىّ بقوله ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾[٦] [٧] والداعى بقوله : واهدنى : إنما يتعرض لاسم الله الهادى وقد قال الحليمى فى معناه " هو الدال على سبيل النجاة والمبين لها لئلا يزيغ العبد ويضل فيما يرديه ويهلكه " [٨] فهو الذى بهدايته

---

(١) ينظر بتصرف : كتاب العين ٤ / ٧٨ ، واللسان ١٥ / ٣٥٣ ، والصحاح ٧ / ٣٨٣ ، وتهذيب اللغة ٦ / ٢٠١ .

(٢) سورة طه : ٥٠ .

(٣) سورة الأنبياء : ٧٣ .

(٤) سورة محمد : ١٧ .

(٥) سورة التغابن : ١١ .

(٦) سورة محمد : ٥ .

(٧) مفردات الراغب ٢ / ٤٦٧ ، وما بعدها ، وينظر : بدائع الفوائد لابن القيم ٢ / ٢٧١ - ٢٧٣ .

(٨) ينظر : الأسماء والصفات ١ / ٢٠٢ ، والمقصد الأسنى ١ / ١٤٦ ، وتفسير أسماء الله الحسنى ١ / ٦٤ .

اهتدى أهل ولايته وبهدايته اهتدى الحيوان لما يصلحه واتقى ما يضره ، وهو الذى هدى كل مخلوق إلى ما لابد منه فى قضاء حاجاته ، والهداية أكبر نعمة ينعم بها الهادى سبحانه على عبده إذ كل نعمة دونها زائلة ومضمحلة وبقدر هدايته تكون سعادته فى الدنيا وطيب عيشه وراحة باله وكذا فوزه ودرجته فى الآخرة ، ولهذا فإن حاجتنا إلى طلب الهداية من مالكها سبحانه أشد من حاجتنا إلى الطعام والشراب ولهذا كانت الفاتحة أم الكتاب ركناً من أركان الصلاة تسقط الصلاة بدونها وتأمل كم صلاة يصليها الإنسان لابد فيها من المرور بطلب الهداية أعظم مسألة فى أعظم سورة فى كتاب الله وفى أعظم موقف بين يدى الله وبعد التحميد والتمجيد والثناء على المولى سبحانه " اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ " ولقيمة الهداية العظمى ومنزلتها السامية شرع لنا رسول الله ﷺ أن ندعو بها ونطلبها فى كل صلاة ، وأخيراً يختم النبى ﷺ الدعاء بطلب الرزق وذلك بقوله : وارزقنى : والرزق هو العطاء من الله تعالى وهو ما ينتفع به وهو ما يسوقه الله تعالى إلى الحيوان للتغذى أى ما به قوام جسمه ونماؤه وهو مصدر قولك رزقه الله والجمع أرزاق هكذا هو فى كتب اللغة " [١] قال صاحب المفردات " الرزق يقال للعطاء الجارى تارة دنيوياً كان أم أخروياً وللنصيب تارة ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة ... يقال أعطى السلطان رزق الجند ورزقت علماً .. والرازق يقال لخالق الرزق ومعطيه والمسبب له وهو الله تعالى .. ويقال ذلك للإنسان الذى يصير سبباً فى وصول الرزق والرزاق لا يقال إلا لله تعالى " [٢] والذى يتوجه إلى الله تعالى بطلب الرزق إنما يتعرض لاسم الله الرزاق قال الحليمى فى معناه " هو الرزاق رزقاً بعد رزق والمكثر الموسع له قال أبو سليمان فيما أخبرت عنه الرزاق : هو المتكفل بالرزق والقائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها قال وكل ما وصل منه إليه من مباح وغير مباح فهو رزق الله على معنى أنه قد جعله له

---

(١) ينظر : مقاييس اللغة ٢/ ٣٨٨ ، والصحاح ٥/ ١٦٧ ، وتاج العروس ٢٥/ ٣٣٥ ، واللسان ١٠ / ١١٥ .

(٢) المفردات ١ / ٣٩٨ .

قوتاً ومعاشاً " [١] إلا أن الشيء إذا كان مأذونا له فى تناوله فهو حلال حكماً وما كان منه غير مأذون له فيه فهو حرام حكماً وجميع ذلك رزق الله ، قال الإمام أبو حامد الغزالى : " والرزق رزقان : ظاهر : وهو الأقوات والأطعمة وذلك للظواهر وهى الأبدان ، وباطن : وهى المعارف والمكاشفات وذلك للقلوب والأسرار وهذا أشرف الرزقين فإن ثمرته حياة للأبد وثمرة الرزق الظاهر قوة الجسد إلى مدة قريبة الأمد ، والله عز وجل هو المتولى لخلق الرزقين والمتفضل بالإيصال إلى كلا الفريقين ولكنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر " [٢] ولهذا ينبغى للعبد إذا سأل ربه ودعاه فى حصول الرزق أن يستحضر بقلبه هذين الأمرين فمعنى : اللهم ارزقنى : أى ما يصلح به قلبى من العلم والهدى والمعرفة ومن الإيمان الشامل لكل عمل صالح وخلق حسن وما به يصلح بدنى من الرزق الحلال الهنيء الذى لا صعوبة فيه ولا تبعة تعتريه وأخيراً أقول هذه الجمل الخمس (اغفر لى ، وارحمنى ، وعافنى ، واهدنى ، وارزقنى) لو نظرنا فى مجموع دلالتها نجد المغفرة : هو طلب أخروى شامل وارحمنى : زيادة فى المغفرة لأن المغفرة - كما تقرر - هى الستر والتغطية ، والرحمة إنما هى إغداق النعمة على العبد شاءت رحمة الله إدخاله فى رحمة الله فيمكن أن يقال المغفرة أمر سلبى والرحمة أمر إيجابى واهدنى : الهداية أمر عام فى أمور الدنيا والآخرة من التوفيق لأعمال الخير أو التوفيق بالعمل الصالح وقوله وعافنى : العافية أعظم مطلوب للإنسان والعافية كلمة تجمع خيرى الدنيا والآخرة وكما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : " اسألوا

---

(١) الأسماء والصفات ١ / ١٧٢ ، وينظر : تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ١ / ٣٨ .

(٢) ينظر : المقصد الأسنى ١ / ٨٤ وما بعدها ، وينظر : شرح العقيدة الواسطية محمد خليل هراس ١ / ٨٨ ، طبعة الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، طبعة أولى ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م ، وتوضيح المقاصد وتصحيح القواعد فى شرح قصيدة ابن القيم لأحمد بن إبراهيم بن عيسى ٢ / ٢٣٥ ، تحقيق / زهير الشاويش ، طبعة المكتب الإسلامى ، بيروت ، طبعة ثالثة ١٤٠٦ هـ .

الله العفو والعافية فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية " [١] وقوله : وارزقنى والرزق مضمون فعلاً عند الله ومع ذلك يأمرنا أن نسأل الرزق وإذا كان مكتوباً ومضموناً فلماذا نسأل الله إياه ؟ إن لم يكن لشيء إلا لتحقيق الامتثال لأمر الله فيما كلفنا به لكفى ومن هنا نجد الصلاة من أولها إلى آخرها ذكر ودعاء ومن بلاغة الرسول ﷺ أنه لم يغب عن باله وهو يتقرب إلى الله بطاعته له أن يسأل كل هذا وغير هذا فى كل حال يكون عليه فى يقظته وعند نومه وفى كل يومه وقبل كل طاعة وفيها وبعد الفراغ منها ، وواضح وجود المناسبة بين هذه الأفعال - اغفر لى وارحمنى وعافنى واهدنى وارزقنى - مما جعل الوصل بينها مستساغاً وهى كلها أوامر خرجت إلى الدعاء وطلب المغفرة والرحمة والعافية والهداية والرزق وأعربت عن ضعف العبد وذله وشدة احتياجه وافتقاره إلى عطاء ربه وعظيم رغبته فى القرب من الله تعالى بعد ستر الذنوب وإزالة العوائق من طريق النجاة وقد جاء هذا الدعاء العظيم المشروع فى هذه الجلسة جامعاً لأصول السعادة محيطاً لأبواب الخير مشتملاً على سبل الفلاح فى الدنيا والآخرة ، والله تعالى أعلم .

---

(١) ينظر : سنن الترمذى ٥ / ٥٥٧ ، حديث رقم ٣٥٥٨ ، وسنن ابن ماجة ٢ / ١٢٦٥ ، حديث رقم ٣٨٤٩ وسنن أحمد ١ / ٢١٨ ، حديث رقم ٤٦ .

المبحث السادس

ما يقال من الدعاء فى التشهد

عن عبد الله بن مسعود قال : " كنا إذا صلينا خلف النبى ﷺ قلنا : السلام على جبريل وميكائيل السلام على فلان وفلان ، فالتفت إلينا رسول الله ﷺ فقال : إن الله هو السلام فإذا صلى أحدكم فليقل : التحيات لله والصلوات والطبيات السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد لله صالح فى السماء والأرض أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله " [١] .

هذا دعاء من أدعية الصلاة كان يواظب عليه النبى ﷺ ويعلمه لأصحابه لما فيه من الإقرار والاعتراف بحق الله وما يجب له وما ينبغى على العبد أن يفعله تجاه ربه تعالى فإذا كان من عادة الملوك أن يُحَيَّوا بأنواع التحيات من الأفعال والأقوال المتضمنة للخضوع لهم والذل والثناء عليهم وطلب البقاء والدوام لهم فالله تعالى أحق بذلك كله إذ هو المعبود بحق وينبغى أن لا يصرف شيء من هذا لغيره ؛ ولهذا كان من كمال فقه الداعى ﷺ أن يقدم بين يدى ربه فى هذه الجلسة الأخيرة ، والتى بها ينهى صلاته التى هى معراج روحه إلى ربه يريد أن يختمها بهذا الإقرار وذلك الاعتراف : التحيات لله والصلوات والطيبات قال أهل العلم " التحيات : جمع تحية ومعناها السلام وقيل البقاء وقيل العظمة وقيل السلامة من الآفات والنقص وقيل الملك " [٢] والمعنى أن الألفاظ التى تدل على الملك ويكنى بها عن الملك والتحية وغير ذلك من أوصاف العظمة هى لله عز وجل ويشير الإمام ابن قتيبة إلى سر إيراد التحيات بلفظ الجمع فيقول " ولم يكن

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب الأذان ، باب التشهد فى الآخرة ، وصحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، باب التشهد فى الصلاة .

(٢) ينظر : فتح البارى ٢ / ٣١٢ ، وشرح السنة ٣ / ١٨١ ، وينظر : الاستذكار لابن عبد البر ، تحقيق / سالم محمد عطاء ، ومحمد على معوض ١ / ٤٨٤ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة أولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠ م .

يحيا إلا الملك خاصة وكان لكل ملك تحية تخصه فلهذا جمعت " [١] ومع هذا فليس شيء مما كان فى تحياتهم يصلح للثناء على الله فلهذا أبهمت ألفاظها واستعمل منه معنى التعظيم – كما أشار إلى ذلك الإمامان الخطابى والبغوى [٢] .

ولفظ التحيات مبتدأ خبره " لله " واللام فى الخبر لام الملك والتخصيص قال الإمام أبو العباس القرطبى " وقوله : لله فى هذا الموضع تنبيه على الإخلاص فى العبادات أى ذلك كله من الصلوات والأعمال لا تفعل إلا لله ، ويجوز أن يراد به الاعتراف بأن ملك ذلك كله لله تعالى " [٣] ثم تعميقاً للفرق بين ملوك الدنيا وما يعاملون به من مملوكيهم وبين ملك الملوك سبحانه وتعالى يعطف الرسول الكريم شيئين آخرين على التحيات لله ألا وهما الصلوات ، والطيبات وكل منهما يصح إعرابه مبتدأ خبره محذوف دل عليه الخبر المذكور والتقدير والصلوات لله والطيبات لله ، وفى الدعاء أعاريب أخرى لعل ما ذكرت هو أشهرها وهو اللائق بالسياق ، وعليه تكون كل كلمة من هاتين الكلمتين جملة مستقلة معطوفة على الجملة السابقة وكأن فى استقلال كل واحدة منهما بأركانها من حيث الإعراب دلالة على استقلالها بهذا الوصف على حدة وثبوته لله على وجه الكمال دون التعلق بشيء آخر وهذا من المبالغة بمكان ، وقد ذكر العلماء أقوالاً فى معنى الصلوات والطيبات قالوا فى معنى الصلوات " أنها الصلوات المعروفة أى الخمس وقيل النوافل وقيل الدعوات والتضرع وقيل الرحمة وقيل المراد العبادات كلها " [٤] وقالوا فى معنى الطيبات أى الطيبات من الكلام وقيل الصدقات وقيل الأعمال الطيبة وهى عامة وقيل الأقوال الصالحة كالأذكار والدعوات وما شاكل ذلك " [٥]

---

(١) غريب الحديث لابن قتيبة ١ / ١٦٨ .

(٢) ينظر : شرح السنة للبغوى ٣ / ١٨٢ ، وعمدة القارى ٩ / ٣٦٦ ، وفتح البارى ٢ / ٣١٢ .

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٢ / ٩٧ .

(٤) ينظر : فتح البارى ٢ / ٣١٣ ، وعمدة القارى ٩ / ٣٦٦ .

(٥) ينظر فى ذلك : المفهم ٢ / ٩٧ ، وشرح أبى داود للعينى ٤ / ٢٣٨ ، وشرح السنة ٣ /

قال ابن حجر " وقيل التحيات : العبادات القولية ، والصلوات : العبادات الفعلية ، والطيبات الصدقات " [١] ولعل تفسير الصلوات والطيبات بما هو أعم أولى أى أن جميع أنواع الصلوات وكل أنواع الطيبات حتى يتناسب ذلك مع عموم لفظ التحيات ليدل ذلك على أن الله سبحانه وتعالى مستحق لكل هذا وملك كل هذا له وحده ولا يجب العمل والتقرب بشيء من هذا إلا لله ولا يصلح شيء من ذلك لغيره من تحية وتعظيم وثناء جميل وقول طيب وإخلاص لعبادة وعمل صالح وصلاة يتقرب بها ، وفى إطلاق اللفظ من غير تقييد دلالة على إرادة العموم والمبالغة وهذا أنسب بالمقام وأقول لما كانت الصلاة مشتملة على عمل صالح وكلم طيب والله تعالى إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ناسب ذكر هذا عند انتهاء الصلاة وقت رفعها إلى الله تعالى ، ولما أتى الرسول الكريم بهذا الثناء على الله تعالى شرع له توجيهاً من ربه أن يلتفت إلى شأنه هو وفى هذا من التعليم للأمة إذ النبى الخاتم هو الذى حصل هذا الخير على يديه وذلك فى قوله ﷺ : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته " قيل معناه التعوذ والتحصن باسم الله الذى هو السلام كما تقول : الله معك أى الله متوليك وكفيل بك ، وقيل معناه السلامة والنجاة لك كما فى قوله تعالى ﴿ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ [٢] وقيل : السلام عليك أى الانقياد لك والتسليم لك " [٣] والمعنى أن حقيقة السلام الذى يعرفه كل واحد وعمن يصدر وعلى من ينزل : عليك وعلينا قال صاحب الفتح " ثم التعريف – يعنى فى السلام – إما للعهد التقديرى أى ذلك السلام الذى وجه إلى الرسل والأنبياء عليك أيها النبى وكذلك السلام الذى وجه إلى الأمم السالفة علينا وعلى إخواننا ، وإما للجنس ... ويجوز أن يكون للعهد الخارجى إشارة إلى

. ١٨٣

(١) فتح البارى ٢ / ٣١٣ .

(٢) سورة الواقعة : ٩١ .

(٣) ينظر : المفهم ٢ / ٩٧ ، وإكمال المعلم ٢ / ١٦٣ ، والمنهاج للنووى ٤ / ١١٧ .

قوله تعالى ﴿ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ [١] وإذا كان السلام بمعنى السلامة – على ما قرر العلماء – كان كالمقام والمقامة وقد وضع المصدر موضع الاسم للمبالغة " ومعنى قولنا : السلام عليك : الدعاء أى سلمت من المكاره وقيل : معناه اسم الله السلام : عليك كأنه تبرك عليه باسم الله تعالى [٢] .

وهذا هو سر الفصل بين قوله ﷺ : التحيات لله وما عطف عليه وبين قوله السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته وهو اختلاف الجملتين خبراً وإنشاءً فالأولى خبر لفظاً ومعنى ، والثانية إنشاء معناها الدعاء وإن كان لفظها خبراً ولعل إيرادها بلفظ الخبر وإن كان معناها إنشاء الدعاء بالسلامة من المكاره ليشير إلى طلب دوام هذا الدعاء واستمراره وتحققه فى كل وقت وحين وهو ما تفيده الجملة الاسمية من الاستمرار والثبوت ، والنداء فى قوله : أيها النبى : نداء مجازى الغرض منه التحبب والتودد وفى حذف أداة النداء إشعار بقرب المنادى من نفس الداعى وإن لم يكن قريباً حساً فينبغى أن يكون قريباً قال شيخ الإسلام " هذا وأمثاله نداء يطلب به استحضار المنادى فى القلب فيخاطب لشهوده بالقلب " [٣] وهذا وأمثاله من أوابد البيان فينبغى أن يحفظ فإن قيل لم عدل عن الوصف بالرسالة إلى الوصف بالنبوة – أيها النبى – مع أن الوصف بالرسالة أعم فى حق البشر ، أجاب بعضهم بأن الحكمة فى ذلك أن يجمع له الوصفين لكونه وصفه بالرسالة فى آخر التشهد (وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) وإن كان الرسول البشرى يستلزم النبوة لكن التصريح بها أبلغ كذلك الحكمة فى تقديم الوصف بالنبوة أنها كذا وجدت فى الخارج لنزول قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [٤] قبل قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [١] يعنى أن النبوة

---

(١) سورة النمل : ٥٩ .

(٢) فتح البارى ٢ / ٣١٤ ، وعمدة القارى ٩ / ٣٩٧ .

(٣) ينظر : اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية ، تحقيق / محمد حامد الفقى ١ / ٤١٦ ، طبعة مطبعة السنة المحمدية القاهرة ، طبعة ثانية ١٣٦٩ هـ ، وينظر : مشكاة المصابيح للتبريزى ٣ / ٤٧٦ .

(٤) سورة العلق : ١ .

وجدت أولاً فهى سابقة للرسالة فلهذا راعى تقديم الوصف المتقدم وهذا من الدقة والمناسبة " [٢] قوله : ورحمة الله : دعاء له بالرحمة التى هى زيادة البركة والخير قال صاحب الفتح " ورحمة الله أى : إحسانه ، وبركاته : أى زيادته من كل خير " [٣] والبركات جمع بركة وهى الخير الكثير من كل شيء واشتقاقه من البرك وهو الإبل الكثير" [٤] قلت وفى اشتقاقه من البرك وهو الإبل ما يفيد معنى الثبوت والرسوخ يعنى أن البركة من الله على نبيه ﷺ لها صفة الثبوت والرسوخ فهى قائمة دائمة وقال الطيبى " البركة ثبوت الخير الإلهى فى الشيء سمى بذلك لثبوت الخير فيه بثبوت الماء فى البركة والمبارك ما فيه ذلك الخير " [٥] وهذه هى تحية المخلوق وقد شرعت بعد تحية الخالق سبحانه وهذا من ترتيب المقامات فتقديم ما ينبغى تقديمه مراعاة للأفضلية والأولوية وهذا من حسن الترتيب والتنسيق وقوله : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين : " نا " فى " علينا " قيل للمصلى وحده وقيل للمصلين ، وقيل للمصلين ومعهم الملائكة ، وقيل لجميع الأمة المحمدية وهذا أقرب قال الإمام العينى " أراد بها الحاضرين من الإمام والمأمومين والملائكة عليهم السلام " [٦] و " أل " فى السلام للعهد الذكرى وهو الذى تقدم فى قوله : السلام عليك أيها النبى بمعنى السلامة والنجاة من المكاره ، والعباد : جمع عبد وهو الإنسان حراً كان أو رقيقاً يذهب فيه إلى أنه مربوب لباريه وهذا من أفضل الأوصاف وأحسنها إطلاقاً على الإنسان الصالح ولا يفوتنى أن أذكّر بقوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ [٧] وما فى ذلك من التشريف والتوقير وأمثال هذا كثير فى القرآن الكريم وفى إضافة لفظ العباد -

---

(١) سورة المدثر : ١ ، ٢ .

(٢) ينظر : فتح البارى لابن حجر ٢ / ٣١٤ .

(٣) فتح البارى ٢ / ٣١٤ .

(٤) ينظر : شرح أبى داود للعينى ٤ / ٢٣٨ .

(٥) عمدة القارى ٩ / ٣٦٩ .

(٦) عمدة القارى ٩ / ٣٦٩ .

(٧) سورة الإسراء : ١ .

وهم أعلى درجات البشر منزلة وقربى من الله تعالى إلى لفظ ذى الجلال " الله " ما فيه من التشريف والتوقير والاحتفاء ثم فى الإيغال بذكر لفظ " الصالحين " من الثناء عليهم والتنويه بشأنهم ما فيه ، والصلاح قال ابن فارس"الصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد " [١] وقال ابن الجوزى " هو التغير إلى الاستقامة فى الحال ، وضده الفساد " [٢] أو كما ذكر العينى " استقامة الشيء على حالة كما له " [٣] والأشهر فى تفسير الصالح " أنه القائم بما يجب عليه من حقوق الله وحقوق عباده وتتفاوت درجاته " [٤] وهم الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم والذين أصلحوا ما بينهم وبين ربهم ، والسلام عليهم هو الدعاء لهم بالسلامة كأنك تقول : تغشاهم السلامة من الله ، وقوله : على عباد الله الصالحين فيه دليل على أن جمع التكثير للعموم ... وقد نبه النبى ﷺ على ذلك حيث قال " أصابت كل عبد لله صالح " فأدخل فيه الكل حتى الملائكة " [٥] وفى تقديم النبى ﷺ فى الدعاء بالسلامة على النفس وعلى غيرها يقول صاحب الفتح " قال البيضاوى علمهم أن يفردوه ﷺ بالذكر لشرفه ومزيد حقه عليهم ثم علمهم أن يخصوا أنفسهم أولاً لأن الاهتمام بها أهم ثم أمرهم بتعميم السلام على الصالحين إعلاماً منه بأن الدعاء للمؤمنين ينبغى أن يكون شاملاً لهم " [٦] وقوله ﷺ : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله : هاتان الجملتان : اعتراف وإقرار بوحدانية الله تعالى وإقرار بإثبات الرسالة للنبى ﷺ لأن معنى أشهد: أقر وأعترف

---

(١) مقاييس اللغة ٣ / ٣٠٣ ، وينظر : اللسان ٢ / ٥١٦ .

(٢) نزهة الأعين النواظر فى علم الوجوه والنظائر لأبى الفرج ابن الجوزى ١ / ٣٩٦ ، تحقيق / محمد عبد الكريم كاظم الراضى ، طبعة مؤسسة الرسالة ، لبنان ، بيروت ، طبعة أولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

(٣) عمدة القارى ٩ / ٣٦٩ .

(٤) ينظر : فتح البارى ٢ / ٣١٤ ، والمنهاج للنووى ٤ / ١١٧ ، وشرح أبى داود للعينى ٤ / ٢٣٩ .

(٥) ينظر : المفهم ٢ / ٩٧ .

(٦) فتح البارى ٢ / ٣١٣ .

وأبين قال ابن فارس " الشين والهاء والدال : أصل واحد يدل على حضور علم وإعلام لا يخرج شيء من فروعه عن الذى ذكرناه ... " [١] والشهادة كما هى فى معاجم اللغة " خبر قاطع وقال صاحب القاموس وأشهد بكذا أى أحلف " [٢] والشهادة الأولى – أشهد أن لا إله إلا الله – تستدعى العبادة والطاعة لله ، والثانية – وأشهد أن محمدا عبده ورسوله – تستدعى المتابعة للنبى ﷺ والتأسى به وطاعته فيما جاء به وشهادة أن محمدًا رسول الله مقتضاها أن تؤمن بأنه رسول الله وأنه بلغ ما أرسل به وأن على الأمة تصديقه وأنه تجب طاعته والتحاكم إليه وامتثال ما أمر به ودعا إليه وأنه بلغ ما أرسل به أتم بلاغ وأتم بيان وأن لا نجاة لأحد إلا باتباعه وأن الطريق مسدود إلا من طريقه ، وفى الجملة – الأولى – لا إله إلا الله : إقرار وإعلام بأن المستحق للعبادة بحق هو الله وحده والقصر فى هذه الجملة للإفراد لأن المشركين كانوا يعبدونه ويشركون معه غيره فأراد أن يفرد لهم المخصوص بالعبادة والمستحق له وهو الله تعالى ولا يصح أن يجمع معه غيره فيها وناهيك عن التوكيد والتقرير الذى تتضمنه جملة القصر فى طياتها وذلك لاشتمالها – كما هو معلوم – على جملتين إحداهما مثبتة والأخرى منفية وما تفيده أيضاً من الإيجاز والتركيز والاختصار ، واسم محمد ﷺ من أفضل الأسماء وأحسنها ومعناه : الذى كثرت خصاله المحمودة قال ابن فارس " وبذلك سمّى نبينا ﷺ محمداً يعنى لعلم الله تعالى بكثرة خصاله المحمودة ألهم أهله التسمية بذلك " [٣] وكذلك الوصف بالعبودية – كما مر – من أفضل ما يوصف به عابد لله تعالى وما افتخر عابد بأفضل من عبوديته لله تعالى والإضافة فى " عبده " للتشريف والاحتفاء ، وربما كان فى ذكر " عبده " هنا رد على رفع النبى ﷺ فوق قدره تأكيداً لحقيقة العبودية فيه ، ودفعاً لما يتوهم من أنه فوق ذلك حذراً مما خاض فيه أصحاب عيسى – عليه السلام – حيث رفعوه فوق

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣ / ٢٢١ .

(٢) ينظر : الصحاح ٣ / ٥٦ ، والقاموس المحيط ١ / ٣٧٢ ، واللسان ٣ / ٢٣٨ .

(٣) ينظر : معجم مقاييس اللغة ٢ / ١٠٠ ، وينظر : المنهاج للنووى ٤ / ١١٧ ، وعمدة القارى ٩ / ٣٧٠ .

قدره وقد أكد النبى ﷺ على هذا المعنى حيث قال " لا تُطْرونى كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله " [١] وفى إيراد الوصف بالرسالة تحقيق وتأكيد لأنه مرسل من ربه حقاً ، وكذلك فيه رد على من كذبه ، وفى إضافة لفظ رسول إلى ضمير ذى الجلال إيذان وإعلان بصدق رسالته وكمال بعثته وفيه كذلك تشريف وتوقير واحتفاء وإذا كان قوله ﷺ " التحيات لله .. فى صدر التشهد فيه تحقيق وتقرير لكل تحية وعبادة وعمل صالح وأنه لله وحده - كان هذا توحيد لله تعالى ثم الدعاء للنبى ﷺ بالسلامة بعد ذلك فيه اعتراف وتقرير لحقيقة بعثته وصدق نبوءته إذا كان ذلك كما تقرر كان قوله بعد ذلك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله كالتقرير والتوكيد للمعنى السابق وزيادة عليه فهناك أثبت لله التوحيد بالتضمين بمعنى أن التحيات والصلوات والطيبات إذا كانت لا تصرف إلا لوجهه وكان لا ينبغى لأحد أن يشركه فى شيء من ذلك كان ذلك توحيدًا له وتفريدًا ولكن بالتضمن لا التصريح وكذلك هناك أثبت للنبى ﷺ النبوة صراحة ولكنه زاد هنا بأن أثبت التوحيد لله تصريحاً بالإقرار والاعتراف والإعلان وبطريق القصر، وأثبت للنبىﷺ هنا الرسالة والعبودية وكلها أوصاف لهﷺ ، ولا يفوتنى أن أشير إلى إعادة لفظ الشهادة " أشهد ... أشهد " وفى ذلك تكرار[٢] يفيد التحقيق والتقرير " لأن الكلام إذا تكرر تقرر " [٣] والوصل

---

(١) ينظر : صحيح البخارى ٨ / ٥٥٢ ، حديث رقم ٣٤٤٥ ، وصحيح ابن حبان ٢ / ٤١٥ ، حديث رقم ٤١٣ ، ومسند أحمد ١ / ٢٩٥ ، حديث رقم ١٥٤ .

(٢) هو إعادة العبارة بنصها فى سياق واحد لغرض يستدعى إعادتها وفى مقام يستدعى هذه الإعادة وقد يكون ما يقتضى تكراره لفظاً مفرداً .. " ينظر : التكرار بلاغة د / إبراهيم الخولى ص ٢١ ، إصدار الشركة العربية للطباعة والنشر ، طبعة ١٩٩٣ م .

(٣) ينظر فى ذلك : الخصائص لابن جنى ، تحقيق د / محمد على النجار ٣ / ١٠٣ ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة ثالثة ١٩٨٨ م ، والبرهان فى علوم القرآن للزركشى ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ٣ / ١١٠ ، طبعة دار المعرفة ، بيروت ، بدون ، والتكرير بين المثير والتأثير ، د / عز الدين على السيد ص ٨٦ ، طبعة عالم الكتب ، طبعة ثانية ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م ، والتفسير البيانى ،

بينهما لاتفاقهما فى الخبرية لفظاً معنى " أشهد .. وأشهد " وهو ما يسميه علماء البلاغة بالتوسط بين الكماليين .

هكذا بعلم النبى ﷺ أمته كيف يسلمون عليه وهم يقرون له بذلك لكنهم لشدة نهمهم وزيادة رغبتهم فى تحصيل العلم من رسول الله ﷺ يودون أن يعرفوا كيفية الصلاة على رسول الله ﷺ امتثالاً لأمر الله تعال ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [١] وقد صرح الحديث الصحيح بطلبهم وبرغبتهم فى معرفة كيفية الصلاة عليه حيث قال الصحابة فيما جاء فى الصحيح " يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك ؟ قال فقولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمدكما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد " [٢] وتبليغا لوحى ربه سبحانه وتعليماً لأمته يذكر لهم ﷺ صفة الصلاة المطلوبة والتى معناها الطلب من الله تعالى أن يصلى على نبيه محمد ﷺ وعلى آله قال أهل العلم فى آله أنهم " قيل أتباعه وقيل أمته وقيل آل بيته وقيل أتباعه من رهطه وعشيرته ... "[٣] وقال الإمام البغوى " قيل هم من حرم عليهم الصدقة وعوضوا عنها خمس الغنيمة والفيء وهم من صلبه بنى هاشم وبنى المطّلب .. وقيل لزيد بن أرقم من آل محمد ؟ قال :آل علىّ وآل جعفر وآل العباس وآل عقيل.." [٤] وطلب أن تكون هذه الصلاة فى بركتها وكثرتها كالصلاة على أبى الأنبياء إبراهيم وآل إبراهيم : الذين هم الأنبياء والصالحون من بعده وأن يزيد فى الخير لمحمد وآله كالبركة التى حصلت لآل إبراهيم فإن الله كثير المحامد صاحب المجد ومن هذه صفاته فهو

د / عائشة عبد الرحمن ١ / ٧٩ ، طبعة دار المعارف بمصر ، بدون .

(١) سورة الأحزاب : ٥٦ .

(٢) صحيح البخارى ١٦ / ١١٨ ، حديث رقم ٦٣٥٧ ، وصحيح مسلم ٢ / ١٦ ، حديث رقم ٩٣٥ .

(٣) ينظر : المفهم ٢ / ١٠٤ .

(٤) شرح السنة ٣ / ١٩٣ .

قريب العطاء واسع النوال ويستهل هذا الطلب بالنداء الذى يجمع كل الأسماء الحسنى ويكون فى مواضع التفخيم والذى يدل على شدة الرغبة فى تحقيق المطلوب وكمال العناية به ، والصلاة من الله تعالى على نبيه ﷺ قيل معناها الرحمة ، وهذا ضعيف وقيل أى ثناء الله عليه فى الملأ الأعلى كما قاله أبو العالية وهو الصحيح " [١] ويكون المعنى : اللهم اذكره فى الملأ الأعلى بالفضل والثناء وإذا كان من المقرر أن يكون المشبه أقل رتبة من المشبه به لأن الغرض العام من التشبيه – كما هو معلوم – إلحاقه به فى الصفة إذا كان ذلك كذلك فكيف يطلب من الله تعالى أن يصلى على محمد وآله كصلاة على إبراهيم وآله ؟ وقد أجيب على ذلك بأجوبة كثيرة أظهرها ما ذكره أبو العباس القرطبى فى كتابه المفهم قال " إن النبى ﷺ سأل ذلك لنفسه وأهل بيته ليتم النعمة عليهم والبركة كما أتمها على إبراهيم وآله ، وقيل بل سأل ذلك لأمته ليثابوا على ذلك وقيل ليبقى له ذلك دائماً إلى يوم الدين ويجعل له به لسان صدق فى الآخرين كما جعله لإبراهيم وقيل كان ذلك قبل أن يعرف أنه أفضل ولد آدم وقيل بل سأل أن يصلى عليه صلاة يتخذ بها خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً " [٢] وربما كان المعنى على أن آل إبراهيم هم جميع الأنبياء من بعده ومنهم نبينا محمد ﷺ وعليهم أجمعين فالمعنى أنه يطلب للنبى وآله صلاة كالصلاة التى لجميع الأنبياء من لدن إبراهيم عليهم الصلاة السلام ومن المعلوم أنها تكون أفضل من الصلاة على النبى محمد ﷺ ، والله أعلم .

أما قوله : إنك حميد مجيد : " فالحميد فعيل من الحمد وهو بمعنى محمود ... وهو أبلغ من المحمود فإن فعيل إذا عدل به عن مفعول دل على أن تلك الصفة قد صارت مثل السجية والغريزة والخلق اللازم " [٣] وقد ورد فى معنى اسم الله الحميد قال الإمام البيهقى " قال الحليمى : هو المستحق لأن يحمد لأنه جل

---

(١) ينظر : المفهم ٢ / ١٠٣ ، وشرح السنة للبغوى ٣ / ١٨٩ .

(٢) المفهم ٢ / ١٠٥ .

(٣) جلاء الأفهام لابن القيم ٤ / ١٤٤ .

ثناؤه بدأ فأوجد ثم جمع بين النعمتين الجليلتين الحياة والعقل ووالى بعد منحه وتابع آلاءه ومنته حتى فاتت العد وإن استفرغ فيها الجهد فمن ذا الذى يستحق الحمد سواه ؟ .. قال الخطابى هو المحمود الذى استحق الحمد بفعاله وهو فعيل بمعنى مفعول وهو الذى يحمد فى السراء والضراء وفى الشدة والرخاء لأنه حكيم لا يجرى فى أفعاله الغلط ولا يعترضه الخطأ فهو محمود على كل حال " [١] وقال الإمام الغزالى " هو المحمود المثنى عليه والله عز وجل هو الحميد بحمده لنفسه أولاً وبحمد عباده له أبداً ويرجع هذا إلى صفات الجلال والعلو والكمال منسوباً إلى ذكر الذاكرين له فإن الحمد هو ذكر أوصاف الكمال من هو كمال " [٢] .

أما اسم الله المجيد فهو مبالغة من ماجد وهو يدل على المجد والشرف " قال الحليمى ومعناه المنيع المحمود لأن العرب لا تقول لكل محمود مجيداً ولا لكل منيع مجيداً وقد يكون الواحد منيعاً غير محمود كالمتآمر الخليع الجائر أو اللص المتحصن ببعض القلاع وقد يكون محموداً غير منيع كأمير السوقة والمصابرين من أهل القبلة فلما لم يقل لواحد منهما مجيد علمنا أن المجيد من جمع بينهما وكان منيعاً لا يرام وكان فى منعته حسن الخصال جميل الفعال والبارى سبحانه يجل عن أن يرام أو يوصل إليه وهو مع ذلك محسن منعم مجمل مفضل لا يستطيع العبد أن يحصى نعمته ولو استنفذ فيه مدته فاستحق اسم المجيد وما هو أعلى منه قال أبو سليمان الخطابى : المجيد : الواسع الكريم ، وأصل المجد فى كلامهم السعة يقال رجل ماجد إذا كان سخياً واسع العطاء " [٣] وقال الإمام الغزالى " هو الشريف ذاته الجميل أفعاله الجزيل عطاؤه ونواله فكأن شرف الذات إذا قارنه حسن الفعال سمى مجداً " [٤] وعلى هذا تكون الجملة : إنك حميد مجيد : جملة تعليلية لطلب الصلاة أى لأنك محمود ومن محامدك إفاضتك بأنواع

---

(١) الأسماء والصفات ١ / ١٦٠ .

(٢) المقصد الأسنى ١ / ١٣٠ .

(٣) الأسماء والصفات ١ / ١١١ ، ١١٢ .

(٤) المقصد الأسنى ١ / ١٢٣ .

العنايات وزيادة البركات على نبيك الذى تقرب إليك بامتثال ما أهلته له من أداء الرسالة هذا على أن اسم " حميد " فعيل بمعنى مفعول أى أنك محمود بمحامدك اللائقة بعظمة شأنك ويحتمل أن يكون حميد بمعنى حامد أى أنك حامد من يستحق أن يحمد ومحمد ﷺ من أحق عبادك بحمدك وقبول دعاء من يدعو له ولآله ولعل هذا أنسب بالمقام وأتساءل ما الحكمة والسر فى اقتران هذين الاسمين " حميد مجيد معًا فى نهاية هذا الدعاء وأقول : الحميد سبحانه هو الذى له من الصفات وأسباب الحمد ما يقتضى أن يكون محموداً وإن لم يحمده غيره فهو حميد فى نفسه ، والمحمود من تعلق به حمد الحامدين وهكذا المجيد ... والحمد والمجد إليهما يرجع الكمال كله فإن الحمد يستلزم الثناء والمحبة للمحمود فمن أحببته ولم تثن عليه لم تكن حامداً له وكذا من أثنيت عليه لغرض ما ولم تحبه لم تكن حامداً له حتى تكون مثنياً عليه محباً له ، وهذا الثناء والحب تبع للأسباب المقتضية له وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال ونعوت الجلال والإحسان إلى الغير فإن هذه هى أسباب المحبة وكلما كانت هذه الصفات أجمع وأكمل كان الحمد والحب أتم وأعظم ... وأما المجد فهو مستلزم للعظمة والسعة والجلال التى يحمد من أجلها ولهذا جمع سبحانه بين هذين الاسمين فقال ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ [١] [٢] هذا ولما كانت الصلاة على النبى ﷺ وهى ثناء الله تعالى عليه وتكريمه والتنويه به ورفع ذكره وزيادة حبه وتقريبه كانت مشتملة على الحمد والمجد فكأن المصلى طلب من الله تعالى أن يزيد فى حمده ومجده فإن الصلاة عليه هى نوع حمد له وتمجيد هذا حقيقتها فذكر فى هذا المطلوب الاسمين له وهما أسماء الحميد المجيد ، والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة هود : ٧٣ .

(٢) ينظر بتصرف : جلاء الأفهام لابن القيم ٤ / ١٤٥ ، وأسماء الله الحسنى فى الكتاب والسنة لمحمود عبد الرازق الرضوانى ١ / ٢١٣ ، ٢١٤ .

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات هدى إلى الصواب وأرشد إليه ووفق إلى الخير وأعان عليه بيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد ، وبعد فقد أعان الله تعالى على الفراغ من هذا البحث على هذا النحو الذى أرجو أن يكون فيه الخير والنفع إن شاء الله تعالى وقد تعرضت فيه لأدعية الصلاة وبينت أهمية الدعاء ومكانته فى الدين ولاسيما إذا اجتمع فى أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين وهو الصلاة وقد أشرت فى مقدمة البحث إلى العلاقة بين الدعاء والصلاة .

وقد سرت فى هذا البحث على خطة أوحت لى بتقسيم البحث إلى مقدمة وتمهيد وستة فصول وخاتمة وفهرس للمصادر والمراجع وقد جعلت فصول البحث ستة بناء على ما قرره العلماء من أن مواطن الأدعية فى الصلاة ستة ، ولما كان البيان النبوى هو روح الحياة والذى منه تستمد الطاقة ويسترشد به فى كل مناحى الحياة فهو المنهج العملى الذى يقوّم سلوك الأفراد والجماعات فى كل التحركات والتوجهات ولم يغب عن السنة المطهرة وهى ترسم للإنسان طريقه أن توفى له بكل احتياجاته وتوفرها له فى كل أمر يقوم به وقد تجلت البلاغة النبوية فى هذا البحث فى أبهى حللها وأضفى أثوابها وإن كانت فى جملتها حلّة ضافية سابغة لا غناء للمسلم عنها هى زينته الحقيقية التى متى ما حرص عليها واستمسك بها انتفع وارتفع واحتمى بها من الضلال ، ولقد أخذت البلاغة النبوية مناحى عديدة وتبدت فى غير صورة فقد جمعت هذه الأدعية فى طياتها من كل ألوان البيان منها ما استطعت إليه سبيلاً ومنها ما فاق طاقتى وتعدى قدرتى وأنا واثق بأن ما فاتنى منها أكثر بكثير مما وقعت عليه ووفقت إليه لأن البلاغة

النبوية كما ذكر العلامة الرافعى – رحمه الله – " هى البلاغة التى سجدت الأفكار لآيتها وحسرت العقول دون غايتها لم تصنع وهى من الإحكام كأنها مصنوعة ، ولم يتكلف لها وهى على السهولة بعيدة ممنوعة " [١] ذلك لأن كلامه ﷺ –كما ذكر الجاحظ – هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجلّ عن الصنعة ونزّه عن التكلف ... استعمل المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع القصر وهجر الغريب الوحشى ورغب عن الهجين السوقى فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة وشيّد بالتأييد ويسر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه وغشّاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ومع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم ولا بارت له حجة ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب ... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أصدق لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح عن معناه ولا أبين فى فحواه من كلامه ﷺ " [٢] .

وبلاغته ﷺ مهما حاولتُ فى وصفها واستعنتُ بأقوال العلماء فى حدها فلا أستطيع ولا أحد من الناس " ولو حك بيافوخه السماء " كما كان يقول عبد القاهر – رحمه الله – .

هذا .. وكنت قد استخلصت عدة أمور من هذه الدراسة هى كالنتائج أود أن أشير إليها وهى :

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ٢ / ٢٧٩ ، طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، طبعة ثانية ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ، تحقيق / فوزى عطوى ١ / ٢٢١ ، طبعة دار صعب ، بيروت ط أولى ١٩٦٨ م .

١ - كان لأدعية الصلاة سمت مميز هو أنها لم يخل منها دعاء إلا وقد ذكر فيه لفظ " اللهم " سواء فى مفتتحه أو بين ثناياه وكنت قد ذكرت أقوال أهل العلم فى بيانه ومعناه وأنه مجتمع الدعاء ومن قاله فقد سأل الله بجميع أسمائه وهى لفظة جامعة شاملة تأتى فى مواضع التفخيم وهذا يعكس عندى شيئين الأول : شدة رغبة الداعى فى قبول رجائه وتحقيق دعائه ولهذا تراه يأتى بهذه اللفظة التى تعين على هذا وتحققه والثانى : عظمة هذا الدعاء وأنه من نفس الداعى بمكان ولا غنى له عنه ولاسيما وهو فى هذا المقام . وقد أتت هذه اللفظة متنوعة السياق فمرة يليها فعل الأمر بمعنى الدعاء كما فى الدعاء الأول " اللهم باعد .. اللهم نقنى .. اللهم اغسلنى " وفى تكرارها مع كل أمر ما يشير إلى عظيم الرغبة فى قبول هذا الدعاء كله ولا يكتفى بقبول بعضه دون بعض ولهذا كررها قبل كل أمر اهتماماً بتحقيق كل مطلب على حدة .

وفى الدعاء الثانى " ... اللهم اغفر لى " وفى الدعاء الخامس " اللهم اغفر لى وارحمنى وعافنى واهدنى وارزقنى " وكأن طلب المغفرة وما تلاها دعوة واحدة لا تتجزأ ولا غنى لطالبها عن شيء منها ولهذا أشركها جميعاً بالواو ، وكما فى الدعاء الأخير " اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ... اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ... " وقد جعل كلاً من طلب الصلاة وطلب البركة مسبوقاً بهذا النداء المفخم وكأن فيه إشارة إلى شدة الحاجة وفيه ما يطمئن الداعى وكأنه يرى فيه ملامح القبول ومخايل الاستجابة وفيه متنفس يريح نفسه ويرضى حسه فلهذا اعتمده فى كل أدعية الصلاة .

ومرة أخرى يأتى النداء " اللهم " وقد تلاه نداء آخر وذلك فى دعاء الركوع والسجود : " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك .. " وكذلك فى دعاء الرفع من الركوع " اللهم ربنا ولك الحمد .. " ويشير ذلك عندى إلى أهمية هذين

الركنين فى الصلاة حتى كأن الصلاة إنما هى ركوع وسجود ، ولأن النداء الثانى يعطى عمقاً ويعكس شدة الحاجة ، وزيادة الرغبة فكأنه يستخرج بهذين النداعين كل زفرة فى قرار النفس ليستفرغ بهما كل طاقته فى الدعاء ويبذل ما فى وسعه لإيصال النداء إلى رب السماء ، وكذلك فى الرفع من الركوع لأنه جزء من الركوع ومتمم له ، ونلحظ أن الحمد قد جاء تابعاً لهذين النداعين كأن الداعى لما استفرغ ما فى نفسه استراح وأحس بأنه لم يترك بها وسيلة لتحقيق دعائه إلا وقد أتى بها فلهذا تراه يحمد ربه وهذه فلسفة ربما يكون لها قبول . ومرة أخرى يأتى النداء " اللهم " وقد تلاه جملة خبرية وذلك فى دعاء الركوع : " اللهم لك ركعت " وفى دعاء الرفع من الركوع : " اللهم لا مانع لما أعطيت .. " وفى دعاء السجود : " اللهم لك سجدت .. " وهذا مزيد اهتمام وعناية بهذين الركنين الركوع والسجود وكأنه يستفتح بالنداء المفخم فيقرر حقيقة ما يتلوه من تخصيص كل من الركوع والسجود وقصره على الله وحده أما قوله : لا مانع لما أعطيت فهى حقيقة تستدعى الوقوف لأنها تقرير لحقيقة مهمة وهى منع العطاء وإعطاء المنع فما أعطى الله أحداً شيئاً ما – لا يوجد أحد ما – ليمنعه وكذلك ما منع الله أحداً شيئاً ما . لا يوجد أحد ما . ليجرى عليه عطاءً وتقديم منع العطاء على إعطاء المنع يفيد أن السابق والمقدم هو العطاء وهذا يشير من طرف خفى إلى صفة الرحمة وسبقها وغلبتها فالعطاء من الله مأمول وهو مظهر الرحمة الأول وللنفس به تعلق فحين يقرر هاتين الحقيقتين ويبدأ بمنع العطاء يطمئن النفوس ويدعوها إلى مواصلة الرجاء ومتابعة الدعاء وكذلك لاحظت فى مادة التنزيه والتسبيح " سبحان " أنها لم ترد فى أدعية الصلاة إلا على صورة المصدر ففى الركوع " سبحان ربى العظيم " وفى السجود " سبحان ربى الأعلى " وفيهما سبحانك اللهم وبحمدك ، ومعلوم أن إيثار

التعبير بالمصدر بدل الفعل يفيد المبالغة وهذا يدل على ثبوت التسبيح والتنزيه على الدوام ، وربما يشير ذلك إلى أن تنزيه الله تعالى وتقديسه لا يقتصر على الدعاء فى الصلاة بل هو لله دائم وثابت فى كل وقت وحين وهو فى الصلاة التى هى معراج الأرواح إلى الله أحرى وآكد كيف ؟ والعبد واقف بين يدى ربه وهو يضرع إليه يدعوه ويرجوه أن يتقبل منه عمله ، وأن يهبه سؤله وأن يحقق رجاءه ألا يستدعى كل هذا إعلان التنزيه لله الواحد الذى لا معطى سواه ولا مجيب غيره ؟

كذلك كان من الملاحظ ورود المنادى مجرداً من أداة النداء وكان هذا فى " اللهم " واضحاً وذلك لما قرره العلماء من امتناع اجتماع النداء مع الميم لأنهم لما حذفوا أداة النداء عوضوا عنها الميم فى آخره فلا يجمع بينهما وهو قاعدة مطردة وهذا قد أعطى خصوصية لهذا النداء أما قوله : " ربنا " فى غير موضع وقوله : " أهل الثناء والمجد " فهو يشير إلى قرب المدعوّ من نفس الداعى فهو أقرب إليه من حبل الوريد فكلما زاد حسّ الداعى بقرب المدعوّ تلاشت الأداة الفاصلة بينهما حتى كأنه لا واسطة بين العبد وبين الرب حتى وإن كانت الواسطة حرف نداء ، أما قوله : " أيها النبى " فربما كان فى حذف أداة النداء دفع لما عليه الظاهر من اعتبار بعد المنادى ﷺ وكأنه أراد أن يقول لا يغرنك بعد المنادى منك فإنك بإتباعك له واقتدائك به وقيامك على سنته وسيرك على طريقته كأنه يقدمك وأنت تتبعه فأى بعد إذاً ؟ وهو متمثل معك فى كل أوامره ونواهيه لا يغيب شخصه عن ذهنك ولا يخلو من حبه قلبك .

كذلك كان من الملاحظ وفرة أساليب التشبيه وتنوعها كما جاء فى الدعاء الأول " كما باعدت بين المشرق والمغرب ..كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس " وفى التشبيه بالمحسوس كما قال العلماء تقريب للمعانى وإدناء

لها من الأفهام وكذلك كما قال عبد القاهر " التمثيل بالمشاهدة يزيدك أنساً " [١] حتى كأنك تدرك الحقيقة وتتصور أبعادها فما بين المشرق والمغرب من البعد ملحوظ ومشاهد لكل أحد فبناء التشبيه على المحسوس المعلوم المشاهد يعطيه مذاقاً فريداً وتصويراً عجيباً مما يمكنه فى النفوس وقد مر الحديث عن هذا التشبيه فى مكانه من البحث .

كذلك نقاء الثوب الأبيض محسوس ومشاهد وبناء التشبيه عليه يعطيه تمكناً فى النفس ورسوخاً فى الحس مما يجعل النفوس تتطلع إليه وتسعى وراءه وأى منا لا يحب أن يرى ثوبه نقياً نظيفاً فكذلك ينبغى أن يطلب ذلك لنفسه من الخطايا والذنوب .

كذلك ورد التشبيه فى آخر دعاء " كما صليت على إبراهيم .. كما باركت على إبراهيم " وملاحظ أن الأداة فى كل هذا هى الكاف فقط ولعل إيثارها دون غيرها من الأدوات يشير إلى أن يقين العبد وإحساسه بقربه من ربه لاسيما فى صلاته يعطيه نوعاً من الراحة النفسية والطمأنينة القلبية مما يزيد فى ثقته بربه وهذا الذى لا يحوجه إلى تأكيد ، وكذلك بعدما بين المشرق والمغرب ونقاء الثوب الأبيض من الدنس كلاهما وضح وظاهر لكل أحد ولا يشك أحد فى ذلك .

كذلك لاحظت كثرة أساليب القصر ولعلها تبدت فى ثوبين فقط هما : التقديم وطريق النفى والاستثناء فقوله فى دعاء الركوع " لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت " وفى دعاء السجود " لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت " وما فيهما من تناغم وتشابه فى طريق القصر وفى بناء جمل القصر فى كليهما من تقديم الركوع والسجود كل فى دعائه وذلك لمراعاة حال المصلى الراكع الساجد ثم بإتباع قصر الإيمان وقصر الإسلام على الترتيب فيهما

---

(١) أسرار البلاغة ، تعليق الشيخ / شاكر ص ١٢٧ .

وهذا التشابه يشير إلى التشابه الشديد بين الركنين الركوع والسجود وأنهما من أفضل أركان الصلاة وما بينهما من السبب القريب فى المعنى فكلاهما خضوع وخشوع وذل وتطامن وكل هذه المعانى قريبة فى مفهومها .

أما طريق النفى والاستثناء " لا إله إلا الله " فهذا موقعه اللائق به لأن الدنيا بما فيها إنما قامت بهذه الشهادة وعليها ولا عبرة للوجود إذا خلا منها ، ولهذا كان من المناسبة بمكان وضعه وإيثاره على غيره من طرق القصر هنا فى التشهد والإقرار بالوحدانية التى نفاها ولم يعترف بها كثير من خلق الله ولا أرى طريقاً آخر يصلح هنا غير هذا الطريق لما يفيده من التوكيد والتشديد لأن مقامه مقام إنكار وجحود ورفض أما عن نسق البلاغة النبوية فإنى أستأنس بما ذكره المرحوم الرافعى حيث قال " إذا نظرت فيما صحّ نقله من كلام النبى ﷺ على جهة الصناعتين اللغوية والبيانية : رأيته مسدد اللفظ محكم الوضع جزل التركيب متناسب الأجزاء فى تأليف الكلمات فخم الجملة واضح الصلة بين اللفظ ومعناه واللفظ وضريبة فى التأليف والنسق ثم لا ترى فيه حرفاً مضطرباً ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه ولا كلمة غيرها أتم منها أداءً للمعنى وتأتيّا لسره فى الاستعمال ، ورأيته فى الثانية حسن المعرض بيّن الجملة واضح التفصيل ظاهر الحدود جيد الرصف متمكن المعنى واسع الحيلة فى تصريفه بديع الإشارة غريب اللمحة ناصع البيان ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراهاً ولا ترى اضطراباً ولا خطلاً ولا استعانة من عجز ولا توسعاً من ضيق ولا ضعفاً فى وجه من الوجوه "[(١)] .

هذا .. وإنى لأرجو أن أكون بما بذلت من جهد وحاولت من فهم وسعيت إلى استنباط نحو محاولة للوقوف على جوانب البلاغة النبوية فى

---

(١) ينظر : تاريخ آداب العرب للرافعى ٢ / ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

أدعية الصلاة – قد بلغت ما أردت حين نصبت نفسى لهذا العمل حرصاً على إبلاغ النفع قدر الطاقة ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وما ورد فى ثنايا هذا البحث من توفيق وصواب فهو من الله وحده وما كان غير ذلك فهو من نزعات النفس ونزغات الشيطان وأنا أبرأ إلى الله منهما ، وأدعو الله أن يهب هذا البحث منه قبولاً وتوفيقاً ورشداً وأن يخلص به القصد وأن ينفع به من يشاء إنه بكل جميل كفيل سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

وكتبه

على بن محمد بن عبد الرحيم بن محمد

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين أجمعين

ثبت المصادر والمراجع

١ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة الهيئة المصرية العامة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

٢ - إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد .

٣ - إحياء علوم الدين - الغزالى ، طبعة دار المعرفة ، بيروت .

٤ - الأدب المفرد للبخارى ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقى ، طبعة دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، طبعة ثالثة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م .

٥ - أساس البلاغة للزمخشرى ، تقديم د / محمود فهمى حجازى ، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣ م .

٦ - أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجانى ، تعليق / محمود شاكر ، طبعة دار المدنى بجدة طبعة أولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م .

٧ - أسرار الصلاة - ابن القيم .

٨ - أسماء الله الحسنى فى الكتاب والسنة ، د / محمود عبد الرازق الرضوانى ، طبعة أولى ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م .

٩ - الأسماء والصفات للبيهقى ، تحقيق / عبد الرحمن الحاشدى ، طبعة مكتبة السوادى بجدة ، طبعة أولى .

١٠ - الاشتقاق لابن دريد ، تحقيق / عبد السلام هارون ، طبعة مكتبة الخانجى مصر طبعة ثالثة .

١١ - أصل صفة صلاة النبى ﷺ للشيخ الألبانى ، طبعة مكتبة المعارف الرياض ، طبعة أولى ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م .

١٢ - الإطناب أنواعه وقيمته البلاغية ، د/ محمود شاكر القطان، طبعة مكتبة دار التراث ، المدينة المنورة ، طبعة أولى ١٩٨٦ م .

١٣ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان - ابن القيم - تحقيق / محمد حامد الفقى ، طبعة دار المعرفة ، بيروت ، طبعة ثانية ١٣٩٥ هـ /

١٩٧٥ م .
١٤ - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، ابن تيمية ، تحقيق / محمد حامد الفقى ، طبعة مطبعة السنة المحمدية القاهرة ، طبعة ثانية ١٣٦٩ هـ .
١٥ - إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضى عياض .
١٦ - الإنصاف فى مسائل الخلاف لأبى البركات الأنبارى ، طبعة دار الفكر دمشق .
١٧ - الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ، تحقيق / خفاجى ، طبعة دار الجيل بيروت ، و طبعة دار إحياء العلوم ، بيروت ، طبعة رابعة ١٩٩٨ م .
١٨ - بدائع الفوائد لابن القيم ، طبعة دار الكتاب العرب ، بيروت ، لبنان.
١٩ - البديع فى نقد الشعر لأسامة بن منقذ.
٢٠ - البرهان فى علوم القرآن للزركشى ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة دار المعرفة ، بيروت ، بدون .
٢١ - البلاغة العالية للشيخ عبد المتعال الصعيدى ، تقديم د / عبد القادر حسين محمد ، طبعة مكتبة الآداب ، طبعة ثانية ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
٢٢ - البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ، د / عبد الرحمن الميدانى ، طبعة دار القلم دمشق ، والدار الشامية ، بيروت ، طبعة أولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .
٢٣ - بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى ، طبعة مكتبة الآداب ، الطبعة السابعة عشرة ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م .
٢٤ - تاج العروس للزبيدى ، تحقيق / مجموعة من المؤلفين ، طبعة دار

الهداية .
٢٥ - تحرير التحبير لابن أبى الأصبع المصرى ، تحقيق د / حفنى محمد شرف ، القاهرة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .
٢٦ - التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ، طبعة مؤسسة التاريخ العربى ، بيروت ، لبنان ، طبعة أولى ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م .
٢٧ - تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ، محمد عبد الرحمن المباركفورى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .
٢٨ - تحفة الحبيب على شرح الخطيب للبجيرمى، ط دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، طبعة أولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .
٢٩ - تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين للشوكانى ، طبعة دار القلم ، بيروت ، لبنان ، طبعة أولى ١٩٨٤ م .
٣٠ - التعريفات للجرجانى ، تحقيق/ إبراهيم الإبيارى، طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، طبعة أولى ١٤٠٥ هـ .
٣١ - تفسير ابن كثير ، تحقيق / محمود حسن ، طبعة دار الفكر ، الطبعة الجديدة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .
٣٢ - تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ، تحقيق / أحمد يوسف الدقاق ، طبعة دار الثقافة العربية ، دمشق ١٩٧٤ م .
٣٣ - التفسير البيانى ، د / عائشة عبد الرحمن ، طبعة دار المعارف بمصر ، بدون .
٣٤ - تفسير الثعالبى ، طبعة مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، بيروت .
٣٥ - تفسير الرازى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة أولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .
٣٦ - تفسير الطبرى ، تحقيق / أحمد شاكر ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، طبعة أولى ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م .

٣٧ - تفسير القرطبى ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .
٣٨ - التكرار البلاغة ، د / إبراهيم الخولى ، إصدار الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٩٣ م .
٣٩ - التكرير بين المثير والتأثير ، د / عز الدين على السيد ، طبعة عالم الكتب ، طبعة ثانية ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .
٤٠ - تهذيب الأسماء واللغات للنووى ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا .
٤١ - تهذيب اللغة للأزهرى، تحقيق/ محمد عوض مرعب ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، طبعة أولى ٢٠٠١ م .
٤٢ - توضيح المقاصد وتصحيح القواعد فى شرح قصيدة ابن القيم لأحمد بن إبراهيم بن عيسى ، تحقيق / زهير الشاويش ، طبعة المكتب الإسلامى ، بيروت ، طبعة ثالثة ١٤٠٦ هـ .
٤٣ - التوقيف على مهمات التعاريف للمناوى ، تحقيق د / محمد رضوان الداية ، طبعة دار الفكر المعاصر ، ودار الفكر ، بيروت دمشق ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .
٤٤ - جلاء الأفهام فى فضل الصلاة على محمد خير الأنام لابن القيم ، تحقيق / شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ، طبعة دار العروبة ، الكويت ، طبعة ثانية ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
٤٥ - جواهر البلاغة للهاشمى تدفيق حسن نجار محمد ، طبعة مكتبة الآداب ، القاهرة ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .
٤٦ - حاشية السندى على ابن ماجه .
٤٧ - حجة الله البالغة ، للشيخ أحمد شاه ولى الله الدهلوى ، تعليق/ محمد شريف سكر ، طبعة دار إحياء العلوم ، بيروت ، لبنان ، طبعة ثانية ١٤١٣هـ /١٩٩٢ م .

٤٨ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم ، طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت ، طبعة رابعة ١٤٠٥ هـ .

٤٩ - خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموى ، تحقيق / عصام شعيتو ، طبعة دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٨٧ م .

٥٠ - الخشوع فى الصلاة لابن رجب الحنبلى .

٥١ - الخصائص لابن جنى ، تحقيق د / محمد على النجار ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة ثالثة ١٩٨٨ هـ ، وطبعة رابعة ١٩٩٩ م .

٥٢ - خصائص التراكيب للشيخ أبو موسى ، طبعة مكتبة وهبة ، طبعة خامسة ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .

٥٣ - درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، تحقيق / محمد رشاد سالم ، طبعة دار الكنوز الأدبية ، الرياض ١٣٩١ هـ .

٥٤ - الدرارى المضية شرح الدرر البهية للشوكانى ، طبعة دار الجيل ، بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

٥٥ - دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ، تعليق الشيخ شاكر ، طبعة دار المدنى بجدة ، طبعة ثالثة ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

٥٦ - ديوان زهير بن أبى سلمى .

٥٧ - الزاهر فى غريب ألفاظ الشافعى للأزهرى ، تحقيق / محمد جبر الألفى ، طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت ، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ .

٥٨ - الزاهر فى معانى كلمات الناس لأبى بكر بن الأنبارى ، تحقيق د/ حاتم صالح الضامن ، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت ، طبعة أولى ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م .

٥٩ - الاستذكار لابن عبد البر ، تحقيق / سالم محمد عطا ومحمد على معوض ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة أولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .

٦٠ - سنن ابن ماجه ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقى ، طبعة دار الفكر ، بيروت .

٦١ - سنن أبى داود ، تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد ، طبعة دار الفكر ، وطبعة دار الكتاب العربى ، بيروت .

٦٢ - سنن الترمذى ، تحقيق / أحمد شاكر وآخرين ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

٦٣ - سنن الدارقطنى ، تحقيق / السيد عبد اللاه هاشم يمانى المدنى ، طبعة دار المعرفة ، بيروت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

٦٤ - السنن الكبرى للبيهقى ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، طبعة مكتبة دار الباز بمكة المكرمة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، وطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند ، طبعة أولى ١٣٤٤ هـ .

٦٥ - سنن النسائى الكبرى ، تحقيق / عبد الغفار سليمان البندارى وسيد حسين ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

٦٦ - سير أعلام النبلاء للذهبى ، مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط ، طبعة مؤسسة الرسالة .

٦٧ - شأن الدعاء للخطابى ، تحقيق / أحمد يوسف الدقاق ، طبعة دار المأمون للتراث ، دمشق ، طبعة أولى ١٤٠٤ هـ .

٦٨ - شرح أبى داود للعينى، تحقيق/ أبى المنذر خالد إبراهيم المصرى ، طبعة مكتبة الرشد ، الرياض ، طبعة أولى ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .

٦٩ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة لهبة الله اللالكائى ، تحقيق / أحمد سعد حمدان ، طبعة دار طيبة ، الرياض ، طبعة ١٤٠٢ هـ .

٧٠ - شرح السنة للبغوى ، تحقيق / شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش ، طبعة المكتب الإسلامى ، دمشق ، بيروت ، طبعة ثانية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

٧١ - شرح صحيح البخارى لابن بطال ، تحقيق / أبى تميم ياسر بن إبراهيم ، طبعة مكتبة الرشد السعودية ، الرياض ، طبعة ثانية ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م .

٧٢ - شرح عقود الجمان للسيوطى ، طبعة الحلبى بمصر ، طبعة ثالثة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .

٧٣ - شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الحنفى ، تحقيق / أحمد شاكر ، طبعة وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، السعودية طبعة ١٤١٨ هـ .

٧٤ - شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس ، طبعة الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، طبعة أولى ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م .

٧٥ - شرح العمدة فى الفقه لابن تيمية، د/ سعود صالح العطيشان، طبعة مكتبة العبيكان ، الرياض ، طبعة أولى ١٤١٢ هـ .

٧٦ - شرح الممتع على زاد المستقنع لابن عثيمين ، طبعة دار ابن الجوزى ، طبعة أولى ١٤٢٢ هـ .

٧٧ - شروح التلخيص ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت بدون .

٧٨ - الصحاح للجوهرى ، طبعة دار العلم للملايين ، طبعة رابعة ١٩٩٠م.

٧٩ - صحيح ابن حبان ، تحقيق / شعيب الأرنـــاؤوط ، طبعـــة مؤسســـة الرسالة ، بيروت ، طبعة ثانية ١٤١٤ هـــ / ١٩٩٣ م .

٨٠ - صحيح البخارى ، تحقيق / محمد زهير ناصر الناصـــر ، طبعـــة دار طوق النجاة ، طبعة أولى ١٤٢٢ هـــ ، وتحقيق د/ مصـــطفى ديـــب البغا ، طبعة دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت ، طبعة ثالثـــة ١٤٠٧ هـــ / ١٩٨٧ م .

٨١ - صحيح الترغيب والترهيب للألبانى، طبعة مكتبة المعارف ، الرياض ، طبعة خامسة .

٨٢ - صحيح مسلم ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقى ، طبعـــة دار إحيـــاء التراث العربى ، بيروت ، وطبعة دار الجيل ودار الآفاق الجديـــدة ، بيروت .

٨٣ - الصلاة وأحكام تاركها ابن القيم ، تحقيق / بسام عبد الوهاب الجابى ، طبعة الجفان والجابى دار ابن حزم ، قبرص ، بيروت ١٤١٦ هـــ / ١٩٩٦ م .

٨٤ - الصناعتين للعسكرى ، تحقيق / على البجاوى ومحمد أبـــو الفضـــل إبراهيم ، طبعة دار الفكر العربى ، طبعة ثالثة ، بدون .

٨٥ - طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى ، تحقيق / محمود محمد الطناحى وعبد الفتاح محمد الحلو ، طبعة هجر للطباعـــة والنشـــر ، طبعة ثانية ١٤١٢ هـــ .

٨٦ - الطبقات الكبرى لابن سعد ، تحقيق / إحســـان عبـــاس ، طبعـــة دار صادر ، بيروت ، طبعة أولى .

٨٧ - الطراز للعلوى ، طبعة دار الكتب العلميـــة ، طبعـــة ١٤٠٠ هـــــ / ١٩٨٠ م .

٨٨ - طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ، تحقيق / عمر بن محمود أبو عمر ، طبعة دار ابن القيم ، الدمام ، طبعة ثانية ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

٨٩ - عقود الجمان للسيوطى ، طبعة الحلبى بمصر ، طبعة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .

٩٠ - عمدة القارى شرح صحيح البخارى لبدر الدين العينى .

٩١ - عون المعبود شرح سنن أبى داود لمحمد شمس الحق العظيم أبادى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة ثانية ١٤١٥ هـ .

٩٢ - غريب الحديث لابن الجوزى ، تحقيق / عبد المعطى أمين قلعجى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٨٥ م .

٩٣ - غريب الحديث لابن قتيبة ، تحقيق د/ عبد الله الجبورى ، طبعة مطبعة العانى ، بغداد ، طبعة أولى ١٣٩٧ هـ .

٩٤ - الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى ، تحقيق / على البجارى ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

٩٥ - فتح البارى لابن حجر ، طبعة دار المعرفة ، بيروت ١٣٧٩ هـ ، وتحقيق / ابن باز ومحب الدين الخطيب ، طبعة دار الفكر .

٩٦ - فتح البارى لابن رجب الحنبلى ، تحقيق / أبى معاذ طارق بن عوض الله ، طبعة دار ابن الجوزى ، السعودية ، الدمام ، طبعة ثانية ١٤٢٢ هـ .

٩٧ - الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير للسيوطى ، تحقيق / يوسف النبهانى ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، طبعة أولى ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م .

٩٨ - فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء للشيخ الغزالى ، طبعة نهضة

مصر ، طبعة أولى .
٩٩ - الفوائد لابن القيم ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة ثانية ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
١٠٠ - فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرءوف المناوى ، تعليق / ماجد الحموى ، طبعة المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، طبعة أولى ١٣٥٦ هـ .
١٠١ - القاموس الفقهى لغة واصطلاحاً سعد أبو حبيب ، طبعة دار الفكر ، دمشق ، طبعة ثانية ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
١٠٢ - القاموس المحيط للفيروز آبادى .
١٠٣ - الكامل فى اللغة والأدب للمبرد ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة دار الفكر العربى ، القاهرة ، طبعة ثالثة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .
١٠٤ - الكتاب لسيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ، طبعة دار الجيل ، بيروت .
١٠٥ - كتاب الأصول فى النحو لابن السراج ، تحقيق / عبد المحسن الفتلى ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ، طبعة ثالثة ١٩٨٨ م .
١٠٦ - كتاب الجمل فى النحو للخليل بن أحمد ، تحقيق د/ فخر الدين قباوة ، طبعة خامسة ١٩٩٥ م .
١٠٧ - كتاب العين للخليل بن أحمد، تحقيق د/ مهدى المخزومى و د/ إبراهيم السامرائى ، طبعة دار ومكتبة الهلال .
١٠٨ - كتاب الكليات لأبى البقاء الكفومى ، تحقيق / عدنان درويش ومحمد المصرى ، طبعة مطبعة الرسالة ، بيروت ، طبعة ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .

١٠٩ - كتاب اللمع فى العربية لابن جنى ، تحقيق / فائز فارس ، طبعة دار الكتب الثقافية - الكويت ١٩٧٢ م .

١١٠ - الكشاف للزمخشرى ، تحقيق د/ عبد الرازق غالب المهدى ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

١١١ - كشاف القناع عن متن الإقناع لمنصور بن يونس البهوتى، تحقيق/ هلال مصيلحى ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، طبعة أولى ١٤٠٢ هـ

١١٢ - اللآلى فى شرح أمالى القالى لعبد الله بن عبد العزيز البكرى ، تحقيق / عبد العزيز الميمنى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، طبعة أولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .

١١٣ - لسان العرب لابن منظور ، طبعة دار صادر ، بيروت ، طبعة أولى.

١١٤ - المجتبى من السنن للنسائى ، تحقيق / عبد الفتاح أبو غدة ، طبعة مكتبة المطبوعات الإسلامية ، حلب ، طبعة ثانية ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

١١٥ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى، تحرير الحافظين الجليلين العراقى وابن حجر ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، طبعة ١٤١٢ هـ / ١٩٩٣ م .

١١٦ - المجموع للنووى .

١١٧ - مجموع فتاوى ابن باز ، أشرف على جمعه وطباعته / محمد بن سعد الشويعر ، طبعة موقع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء .

١١٨ - مجموع فتاوى ابن تيمية، الإصدار الثانى ، دراسة وتحقيق/ عبد الرحمن محمد قاسم ، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ، طبعة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .

١١٩ - المحرر الوجيز لابن عطية ، تحقيق / عبد السلام عبد الشافى ،

طبعة دار الكتب العلمية ، لبنان ، طبعة أولى ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م.

١٢٠ - المحيط فى اللغة للصاحب بن عباد ، تحقيق / الشيخ محمد حسن آل ياسين ، طبعة عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، طبعة أولى ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

١٢١ - مختصر السعد التفتازانى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٢٢ - المخصص لابن سيده ، تحقيق / خليل إبراهيم جفال ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، طبعة أولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م.

١٢٣ - مدارج السالكين لابن القيم ، تحقيق/ محمد حامد الفقى، طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت ، طبعة ثانية ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .

١٢٤ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للملا القارى .

١٢٥ - المستخرج على صحيح مسلم لأبى نعيم الأصبهانى ، تحقيق / محمد حسن إسماعيل الشافعى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

١٢٦ - المستدرك للحاكم ، تحقيق / مصطفى عبد القادر عطا ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .

١٢٧ - مسند أبى يعلى ، تحقيق / حسين سليم أسد ، طبعة دار المأمون للتراث ، دمشق ، طبعة أولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

١٢٨ - مسند أحمد تحقيق / شعيب الأرناؤوط وآخرين ، طبعة مؤسسة الرسالة ، طبعة ثانية ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ م ، وطبعة مؤسسة قرطبة ، القاهرة .

١٢٩ - مشكاة المصابيح للخطيب التبريزى .

١٣٠ - مصابيح التنوير على صحيح الجامع الصغير للألبانى .

١٣١ - مصباح الظلام للشيخ عبد اللطيف آل الشيخ ، دراسة وتحقيق /

الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الزير آل أحمد ، طبعة وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، طبعة أولى ١٤٢٤ م .

١٣٢ - المصباح فى المعانى والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك ، تحقيق د/ حسنى عبد الجليل يوسف ، طبعة مكتبة الآداب بالجماميز ، بدون.

١٣٣ - المصنف فى الأحاديث والآثار لابن أبى شيبة ، تحقيق / كمال يوسف الحوت ، طبعة أولى ١٤٠٩ هـ .

١٣٤ - معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول للحافظ بن أحمد الحكمى ، تحقيق / عمر بن محمود أبو عمر ، طبعة دار ابن القيم ، الدمام ، طبعة أولى ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .

١٣٥ - معجم الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى .

١٣٦ - المعجم الكبير للطبرانى ، تحقيق / حمدى بن عبد المجيد السلفى ، طبعة مكتبة العلوم والحكم ، الموصل ، طبعة ثانية ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م .

١٣٧ - معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، تحقيق / عبد السلام هارون ، طبعة دار الفكر ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

١٣٨ - المغنى لابن قدامة ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، طبعة أولى ١٤٠٥ هـ .

١٣٩ - المفردات فى غريب ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى ، طبعة دار القلم ، دمشق .

١٤٠ - المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم لأبى العباس القرطبى .

١٤١ - مفهوم الشكر لابن تيمية .

١٤٢ - المقصد الأسنى فى شرح معانى أسماء الله الحسنى للغزالى ، تحقيق / بسام عبد الوهاب الجابى ، طبعة الجفان والجابى ، قبرص

، طبعة أولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

١٤٣ - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووى ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، طبعة ثانية ١٣٩٢ هـ .

١٤٤ - نزهة الأعين النواظر فى علم الوجوه والنظائر لأبى الفرج بن الجوزى ، تحقيق / محمد عبد الكريم كاظم الراضى ، طبعة مؤسسة الرسالة ، لبنان ، بيروت ، طبعة أولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

١٤٥ - نظم الدرر للبقاعى، تحقيق/ عبد الرازق غالب المهدى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م .

١٤٦ - نهاية الزين فى إرشاد المبتدئين لمحمد بن عمر الجاوى ، طبعة دار الفكر ، بيروت .

١٤٧ - النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، تحقيق / طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحى ، طبعة المكتبة العلمية ، بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

١٤٨ - نيل الأوطار للشوكانى ، طبعة إدارة الطباعة المنيرية .